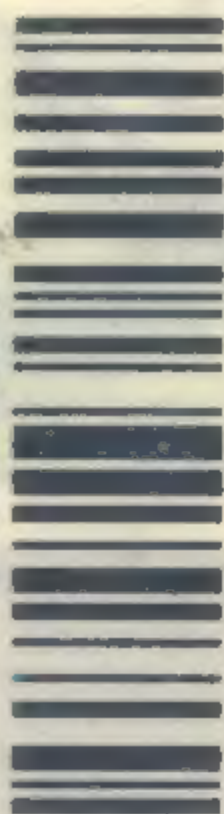


دكتور حسين فوزي



0159714



مكتبة الإسكندرية  
Bibliotheca Alexandrina

Bibliotheca Alexandrina

سندباد إلى العالم الجديد



دار المعارف





دکتور حسین فوزی

# سندباد الی العالم البدي



دار المغارف

---

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

## باريس - نيويورك في ست ساعات

« أعتزف بأنى فى أمريكا رأيت أكثر من  
أمريكا.. كنت أبحث عن صورة الديمقراطية  
ذاتها، بميوها، وطبيعتها، وتحيزاتها وانفعالاتها،  
حتى نعرف ما نخشاه من تقدمها، وما نرجوه ».

الكونت ألكسيس ده توكفيل ١٨٣٣ م

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤ غادرت باريس بالطائرة « الجامبو » ( بوينج  
٧٤٧ ) إلى نيويورك فبلغتها فى ست ساعات . وفى ٢٥ نوفمبر طرت فى  
الساعة الثامنة مساءً من مطار نيويورك الكبير ( جون كنىدى ) فوصلت  
إلى باريس فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، بحساب ساعتى دون  
تغيير توقيتها ، وبما أن الشروق فى باريس يسبق الشروق فى نيويورك  
بست ساعات ، فقد ضبطت ساعتى على الساعة الثامنة صباحاً فى باريس ،  
أى بعد ست ساعات من مغادرة نيويورك .

وفى اليوم التالى من الوصول إلى باريس ، استخرجت من بين أوراقى  
الكثيرة وريقة عليها هذا العنوان « فندق كيربورن بارك » ، رقم ١٢٦٠  
شمالاً ، شارع « ديربورن باركوى » . امتحنت ذاكرتى لأعرف المدينة التى  
نزلت بها فى هذا الفندق ، فلم تسعبنى سوى كلمة « شيكاجو » . وبجانبها  
تاريخ مغادرتى للمدينة الأمريكية العظمى .

أذكر هذه التفاصيل لسببين :

الأول أن هذه ليست المرة الأولى أعبر فيها عدداً ملحوظاً من خطوط

الطول أو العرض ، وذات مرة عبرت خطوط العرض من الإسكندرية حتى خط ١٠ درجات جنوبي خط الاستواء . ومن روما حتى مونتيفيديو عاصمة الأورجواي حتى خط ٣٥ درجة جنوبي خط الاستواء .

وأن سفرى لأول مرة من القاهرة إلى باريس سنة ١٩٢٥ استغرق أكثر من ستة أيام على حين أن الوصول إليها اليوم يتم في أقل من ست ساعات ، وبعد الحرب العالمية الثانية تَوَّأ ، مكثت بالطائرة نحو ثلاثين ساعة لأبلغ لوندرة من القاهرة ، وأكثر من ثلاثين ساعة ( ١٩٥٤ ) للوصول من روما إلى مونتيفيديو .

لنتأمل في تواضع ما حققه الإنسان في أسفاره حول الكرة في أقل من نصف قرن ، بل ما توصل إليه علماء ورواد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية من السفر إلى القمر ، وارتداد سطحه وفحص تربته ، ووشيكاً يتم الاتصال بين الكواكب ، وواحدة من المركبات ذاتية الحركة عبرت حتى كتابة هذه السطور ( ٢٧ نوفمبر ١٩٧٤ ) إلى المريخ ، في طريقها إلى المشتري . وتصور أن سرعة انتقال الإنسان حتى بعد عصر نابليون حددتها سرعة الجياد ، هذا والحمام الزاجل أسرع وسيلة لنقل الرسائل ، ومنذ أربعة قرون وصل كولمبوس بعد أشهر من مغادرته شبه جزيرة إيبيريا إلى بعض جزر الهند الغربية في البحر الكاريبي ، فحسب أنه بلغ شرقى آسيا .

والسبب الثانى لذكر هذه التفاصيل هو إيضاح أننى تركت لأوراق الفنادق وجدول انتقالى بالطائرات وقائمة مواعيد محاضراتى ، تحديد خط رحلاتى من شرقى الولايات المتحدة ( نيويورك ) إلى أقصى غربيها ( سان فرانسيسكو ) ، زائراً أو محاضراً أو متحدثاً بجامعة نيويورك ، وهارفارد

( قرية كمبردج ضاحية بوسطن ) ، ومدينتي واشنطن وشيكاجو ( ولم أزر جامعتيها ، مكتفياً بارتياح المعهد الإسميثونيان في عاصمة الولايات المتحدة ، كانت إقامتي بكل من هذه المدن لا تتعدى ثلاثة أيام ، فيما عدا بوسطن التي نزلت بها مرتين قبل سفرى إلى أقصى الغرب .

أما انطباعاتى ، وقراءاتى ، ومشاهداتى فقد اعتمدت في كتابتها ( بياريس ) على الذاكرة وحدها ، لكثرة انشغالى بالمحاضرات واللقاءات والمشاهدات العلمية والفنية والتاريخية ، هذا إلى أننى في رحلاتى غير حريص دائماً على تسجيل مذكرات ، أو ملاحظات . ولعلى أصدر فى هذا عن مذهب ، فنى سليم ، وهو أن مالا تحفظه الذاكرة لا قيمة له ، وأن ما يترك في النفس أثره ، فتحرص الذاكرة عليه ، قد يؤتى ثماره ، إن رضى القلم .

والولايات المتحدة الأمريكية ، مشكل إنسانى واجتماعى ، لا أحسبني توصلت إلى تحليله ، مع أن الموضوع الذى أرجو التوفيق في كتابته هو معالجة هذا المشكل .

ما من شك في أننا حيال شعب عظيم حقاً ، منفسح الرؤية ، جدير بمركز أمتة وحكومته بين شعوب العالم وحكوماتها ، شعب هائل في إنجازاته المادية والأدبية والفنية والفكرية ، ولست رجل سياسة لأحكم على نجاح أو فشل سياسة حكومته ، ولكن لانكران لهيئتها في العالم الحديث ، لا يضارعه ويصارعه سوى سلطان الاتحاد السوفيتى ، كل في مجموعة الأمم التى تؤمن ، وتمارس كثيراً أو قليلاً ، نظامه الاجتماعى والاقتصادى . لقد قدرت في مختلف ممارساتى قيمة الكتب والموسوعات العلمية التى تصدرها أمريكا ، وعرفت من طريق المسجلات أوركستراتها السيمفونية



التي تقف في صدارة أمثالها بأوروبا الغربية والشرقية. وأسمع بشهرة دار أوبرا المتروبوليتان وقاعدة كارنجي (نيويورك) وقاعة السيمفوني (بوسطن)، وطالعت شيئاً من الأدب الأمريكي الكلاسيكي والمعاصر، وعرفت بعض الأمريكيان في بلادنا، وفي أوروبا، أقران علم، أو زملاء اجتماع، وأعجبت بصفات هؤلاء وأولئك وهي صفات اجتماعية تمتاز بالود والصراحة، مع بعض الاجتراء، والاعتزاز بالنفس، عثرت على تفسيره في قول مؤرخ معاصر من مؤرخيهم: أمدت الثورة الأمريكية (للتحرر من الحكم البريطاني)، الشعب الأمريكي بمكانة مستقلة في أسرة الأمم، وأعطته نظاماً اجتماعياً ينقص فيه حساب الإرث والثروة والتميز عن حساب المساواة، وإن كانت الثقافة وآداب السلوك قد هبطت إلى أجل، فلأن المساواة بين الناس قد قويت، كذلك أهدت الثورة الشعب الأمريكي، آلاف الذكريات التي تعمل في توطيد إحساسه القومي. ويمكن الإضافة، تعليقاً على جملة (أعطت الثورة للشعب نظاماً انخفضت فيه المستويات الثقافية وآداب السلوك إلى أجل «قول المؤرخ ذاته: «إن المغامرات في اتجاه الغرب حتى المحيط الباسيفيكي بذرت في طبيعة الأمريكي العنف، وسرعة المبادرة، والأثرة، وحب التفوق على الآخرين، إلى درجة الرغبة العارمة في الخروج عن القطيع».



## الصعود حتى جبهة تمثال الحرية

في صباح اليوم السابق على مغادرتي أميركا عائداً إلى أوربا ، توجهت إلى الطرف الجنوبي لجزيرة مانهاتن حيث مداخل ميناء نيويورك ، لأشاهد تمثال « الحرية تضيء العالم » . لم أكن أعرف أنه مقام فوق جزيرة صغيرة تواجه السفن القادمة ، وتودع الخارجة من المرفأ الهائل . كان يوم أحد بجمهوره ، وأغلبهم أميركان من خارج نيويورك ، أو من داخلها . ركبنا المعدية حتى جزيرة التمثال . وعرفت عقب دخولي بناء قاعدته أن من الممكن الصعود داخل التمثال وكنت أتصور في سذاجة أن المصعد يوصلنا إلى القمة ، فإذا به يقف نهائياً عند سطح القاعدة الفسيح . وللناس الخيار حينذاك في الاكتفاء بمشاهدة المنظر حول التمثال : ناطحات السحاب في مانهاتن على القرب وبروكلن وكوينز على البعد . وهذه هي الصورة التي تنطبع عند كل مشاهد لنيويورك من الأعلى ، أو من السفن أو في الصورة الثابتة والمتحركة .

الخيار في ذلك ، أو في الصعود إلى رأس التمثال من داخله ، وذلك يتم فوق درج حلزوني كدرج المآذن والفنارات . وهو صعود شاق لاجتماع الضيق ، والدوران ، والطابور الصاعد واحداً لصق الآخر ، ويستغرق ربع ساعة أو أكثر .

بلغنا داخل الجبهة لنطل من « طاقة » صغيرة مكشوفة هي جزء من الحلية أو التاج على رأس سيدة الحضارة ( الحرية ) . اكتفيت بالنظرة

العابرة لأن ضيق المكان لا يسمح لغير واحد من الطابور المزدحم، بالوقوف طويلاً خلف الطاقة المكشوفة. استطعت أن أرى منها إلى اليمين بعض الذراع الحاملة للشعلة، التي تضيء العالم، وعدت نازلاً أدراجي. التمثال من صنع الفنان الفرنسي فريدريك بارتولدي، أهدته الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الأمريكية اعترافاً بجميل معاونتها في حروبها مع إنجلترا وفرنسا هي التي قدمت في حرب تحرير أميركا من النير البريطاني، حملة عسكرية من خمسة آلاف رجل يقودها الكونت ده روشامبو (ماريشال فرنسا فيما بعد)، أما لافاييت فقد ذهب متطوعاً وعين في جيش الثورة، تحت قيادة جورج واشنطن، برتبة ميجور جنرال.

والمثال الفرنسي (المتوفى عام ١٩٠٥ بارتولدي أصله من كولمار بالإلزامس، وله فيها متحف بمسقط رأسه. وقد اشتهر بارتولدي بالتعبير الوطني، وبطريقة ضخمة لا تعنى بالتفاصيل. وقد لا يعرف الكثيرون من زوار باريس أن تمثال (أسد بلفور) بميدان دانفير - روشروه رمز الدفاع عن حصن بلفور، واحد من أحسن تماثيل بارتولدي. وأن بميدان من ميادين مدينة بال (سويسرا) مجموعة من أقوى أعماله الوطنية، تمثال نكبة فرنسا في فقد الإلزامس في حرب السبعين. والمجموعة تمثل «سويسرا تستقبل الإلزامس الحزينة» وتمثال القناة الإلزامسية، استطاع بارتولدي أن يركز فيه تأثيراً إنسانياً عميقاً.

عدت إلى مانهتان لأقضي بقية اليوم وبعض المساء في متحف «جوجنهايم» وهو بناء عجيب مستدير كأنه «بيرسلم»، ضخمة، لادرج فيه (مثل بير الحلزون في قلعة صلاح الدين) يصعد الزائر إلى أعلاه



بالمصعد، ثم ينزل على منحدر دائري في جوانبه حجرات أو « حنيات » العرض وهى مجرد المسافة بين المنحدر وحائط المبنى الدائري، وتتغير معروضاتها حسب الظروف، فالمتحف مختص بأعمال الفن الحديث والمعاصر.

وفى آخر المنحدر حجرات، أو ممرات تعرض فيها بصفة دائمة مجموعة قيمة جدًا من أعمال كبار المصورين منذ مطالع الانطباعية والتأثرية والضارية، والتكعيبية.. حتى آخر مبدعات عظماء المدرسة المعاصرة. وأميركا غنية جدًا فى مقتنياتها للفن الحديث والمعاصر، كما أنها تحتوى على مجموعات فنون الشرق والغرب ومن أقاصى آسيا حتى الإقيانوسية ويمكن القول بأن مدارس التصوير والنحت الأوربى متمثلة فيها تمثلا قريبا من الكمال. وإن كانت نسبة كبيرة من أعمال عظماء المصورين والنحاتين الأوربيين تمثل لوحاتٍ وقطعاَ تتفاوت قيمتها، وهذا طبيعى فى أمة حديثة التكوين، دخلت سوق المقتنيات متأخرة. ولكن أثرياءها لا يترددون فى دفع أغلى الأثمان كلما ظهر فى السوق العالمية عمل اكتشف حديثا. مثال ذلك صورة « المليون دولار » لرمبرانت، وربما كانت هذه فى نظرى هى الوحيدة من صور رمبرانت بمتحف المتروبوليتان ( بنىويورك ) التى تمثل الهولندى العظيم أحسن تمثيل.

## محاولة لفهم الولايات المتحدة والأمريكان

ما إن تأكدت من تحقيق الدعوة لزيارة الولايات المتحدة في الخريف الماضي ، حتى بدأت الاطلاع الجاد على شئون تلك البلاد الواسعة التي لم أعرف عنها أكثر مما طالعت في مؤلفات علمائها ومفكرها وأدبائها ، وما رأيت من أفلامها ، وسمعت من موسيقاها الكبرى ( أى مما هو غير الجاز وأقربائه ) .

ركزت اهتمامى الأول على الجانب التاريخى من قيام الولايات المتحدة ، وحرصت على وعى دستورها ، وطريقة ممارسة الحكم فيها ، مستعيناً بأزمة عنيفة قائمة حول رياستها ، وهى المعروفة بفضيحة « ووترجيت » . والعالم يشهد سطوة رأى العام الحر ، والصحافة القوية ، الطليقة من قيود الحكم والتحكم ، والإيمان بدستور عاش ، ويحيا دون تغيير أو تبديل منذ مائتى عام ، إنما أضيفت إليه عشرون مادة تعرف بمواد التعديل أو التصحيح ، مجازاة لتطور المجتمع ، واتساع رقعة البلاد عبر نهر المسيسبى ، مما يفرض إضافات جديدة تحقيقاً لطوارئ الحدثان ، وارتقاء مدارج العمران . هذه حقيقة لا يتنبه إليها الناس عادة فى ناحيتنا من العالم ، وهى أن دستور الولايات المتحدة الأمريكية هو الوثيقة الوحيدة بين أمثالها فى العالم ، التى لم يتغير حرف منها على مدى قرنين من الزمان ، أى منذ استقلال الولايات المتحدة الثلاث عشرة عن إنجلترا برلماناً وحكومة ومُلكاً . ولو كان الدستور البريطانى ( فيما عدا « المايناكارتا » العتيقة ) وثيقة مكتوبة لكان



أسبق وأقدم الدساتير الحية في العالم . فما أكثر ما تعدلت الدساتير منذ الثورة الفرنسية الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر ، وكذا دساتير البلاد والأمم الأخرى . في الشرق والغرب .

وإذا كانت هجرة « الآباء الحجاج » ، ركاب السفينة « ماى فلاور » ، من وطنهم الإنجليزى في مطلع القرن السابع عشر ، دفاعاً عن مذهبهم الدينى الخاص ، وتخلصاً من عبودية الكنيسة الرسمية الأنجليكانية ، فقد ظلوا بأرض العالم الجديد مقيمين على تقاليد الديمقراطية البريطانية مؤمنين بحرية الإنسان في ممارسة ملته ومذهبه ، والتعبير عن رأيه بلسانه وقلمه ، منفرداً ومجتمعاً على رأى ومسمع من الناس .

وعندما أجحف ملك إنجلترا والبرلمان الإنجليزى بحق مستعمري الأرض الجديدة بأمريكا ، فى ألا يفرض عليهم ضرائب دون استشارتهم ، وحينما بدأ القهر لتنفيذ ما قرره الحكومة الإنجليزية من ضرائب ، أضرم المهاجرون الأوائل فى ثلاث عشرة ولاية نيران الثورة على الدولة الأم ، واختاروا مزارعاً من فرجينيا لقيادة حرب الاستقلال ، هو جورج واشنطن القائد الهادئ ، والرائد الحكيم .

وخير ما يذكر بصدد هذه الثورة ونتائجها ، هو وثيقة « إعلان الاستقلال » وضعتها لجنة من خمسة أعضاء جاء فيها : « ..... وهذه حقائق توضح ذاتها بذاتها :

« وهى أن الناس خلقوا سواسية ، وهبهم الخالق جلّ وعلا حقوقاً لا تخلى عنها ، ومن بينها : الحياة ، والحرية ، ومتابعة السعادة . وأنه للمحافظة على هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس ، تستمد سلطانها من موافقة المحكومين - وأنه حينما يبدو أن النظام الحكومى أضحى مدمراً

لهذه الغابات، فإن من حق الشعب تغيير الحكومة، أو محوها، وإقامة حكومة جديدة يكون أساسها وعمادها هذه المبادئ، وتنظم سلطاتها بطريقة تضمن للشعب السلامة والسعادة».

الصعوبة التي نلاقيها في فهم أمريكا والأمريكان هو أننا لا نعى سوى القليل من أصول ديمقراطيتهم، ولقد عرفت قلة من الأمريكان في مصر وخارج مصر، مثلاً في التهذيب، رفاقاً ودودين «عشريين». بل كان من أكبر من أثار إحساسى بتاريخ مصر القديم هو المؤرخ الأمريكى «بريستد» فى كتبه، قرأت منها فى شبابى الأول تاريخ مصر الفرعونية فى طبعاته الأولى وفى أوائل العشرينات أو قبلها، استمعت إلى محاضرة له اجتمع فيها جمهور غفير من طلبة المدارس العليا. وختم المؤرخ الكبير محاضره بتوجيه كلمة إلينا مفعمة بالحماس، أثارت فينا نخوة الاعتزاز الصميم بحضارة أجدادنا الأوائل. ولقد أشرت فى كتابى «سندباد مصرى» إلى هذه الواقعة وإلى أستاذ أمريكى معاصر أظنه من تلاميذ بريستد، قرأت كتابين له، ونقلت فقرات من أحدهما تدعياً للفصل الأخير الذى خصصته للفجر المنير، وإشراق شمس الحضارة المصرية على العالم القديم. ألا وهو صديقنا الأستاذ الكبير الدكتور ويلسون الذى شرفنى بـلقائه لأول مرة وقدمه إلى المرحوم العلامة الدكتور فخرى. وطالعت فيما قرأت كتاباً ما فتى مرجعاً من مراجع الديمقراطية الأمريكية فى ثلاثينات القرن الماضى الفرنسى الكونت الكسيس ده توكفيل.

سافرت إذن إلى الولايات المتحدة بعقل متفتح، يعرف بعض أصول ديمقراطيتها العظيمة فى صدقها، وإنسانيتها. العجيب منها أنها لم تنشأ فكرة فلسفية، ولكن بعض الرجال الأوائل الذين قادوا الثورة ضد



الإنجليز - ومنهم جيمس ماديسون ، الرئيس الرابع ، كانوا مطلعين إطلاعاً كافياً على الفكر السياسى . فكان من أول ما فكر فيه واضعو الدستور أن تقوم الحكومة على ثلاث قواعد متوازية متوازنة : الهيئة التشريعية ، والهيئة التنفيذية ، والمحكمة الدستورية العليا ، مفصلياتها تسمح بالعمل المتوافق بينها ، على شريطة ألا تعدو واحدة منها على الأخرى . نشأت الفكرة بادئ ذي بدء من التجربة التاريخية لمستعمري الأرض الجديدة ، وتقوت بكتابات الفيلسوف الإنجليزى لوك ، والفرنسى مونتسكيو . وكان واضحاً من كل ما خبره المستعمرون الأوائل - وجلهم بريطانيون - من النظم البريطانية ، أن تقوم الهيئة التشريعية ( الكونجرس ) على مجلسين . وأن يحىء تمثيل الولايات فى مجلس الشيوخ متساوياً تماماً : شيخين عن كل ولاية . أما فى مجلس ممثلى الأمة فيكون مؤسساً على النسبة بين عدد سكان كل ولاية . ثم فحصت فكرة اختيار رئيس الولايات المتحدة هل ينتخبه الكونجرس بمجلسيه ؟ ومعنى ذلك تغليب سلطاته على الرئيس بحكم انتخابه له . أو أن يقوم على التصويت العام بين كافة السكان ؟ وكان هذا صعباً بسبب اتساع رقعة الأرض التى توزع فوقها السكان ، والتوسع المستمر فى المناطق الجديدة ، هذا مع صعوبة المواصلات ، وبطء الاتصال بين الولايات . فلم يكن ميسراً أن يتفق اختيار مجموع السكان على مرشح واحد ، أو مرشحين قلائل . ثم انتهوا إلى مجلس انتخابى ( كوليدج ) خاص بالرياسة ، وهى خطة لم تنجح إذ لم تحسب حساب نمو الأحزاب السياسية .

أما عن المحكمة الدستورية العليا فقد انتهى الاتفاق على أن رئيس الاتحاد يعين قضائها مدى الحياة ، على أساس حسن السلوك ، بعد استشارة وموافقة مجلس الشيوخ .

جاء في ختام الدستور « هذا الدستور، وقوانين الولايات المتحدة التي تصدر بمقتضاه، وكافة المعاهدات المعقودة، أو التي تعقد فيما بعد تحت سلطات الولايات المتحدة، هي القانون الأعلى للبلاد. والقضاة في كل ولاية مقيدون به، مهما جاء في دساتير وقوانين الولايات مما يعارضه ويخالفه ».

وفي السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٨٧ عقد المجلس التأسيسي ( الكونغرسيون ) آخر جلساته ووقع الأعضاء على الوثيقة التاريخية، باستثناء ثلاثة من الحاضرين رفضوا التوقيع.

كان الأعضاء شديدي التأثير باللحظة العظيمة، في حين استغرق الرئيس واشنطن في تفكير عميق. وخفف التوتر الجو العلامة والكاتب بنيامين فرنكلين، أول سفير للولايات المتحدة لدى فرنسا، قائلاً، وهو يشير إلى نصف قرص الشمس المرسوم بخطوط ذهبية على ظهر مقعد الرئيس: « إن الفنانين لا قوا دائماً صعوبة في التمييز بين أن يمثل الرسم شمساً طالعة، أم شمساً غاربة. ما أكثر ما تطلعت في هذه الجلسات إلى الرسم خلف ظهر الرئيس يداولني الأمل والتوجس في نتيجة أعمالنا، دون الحكم بأن الشمس طالعة أو غاربة. والآن، أخيراً، أعبر عن سعادتي بالتحقق من أنها شمس مشرقة ».

ومع ذلك فإن الرئيس الثالث للولايات المتحدة، توماس جفرسون يعترف « بأن المساواة ليست تامة في أمريكا، فثمة عدم المساواة بين الفقير والغني، بين النساء والرجال، بين السود والبيض. ولكن فشل المجتمع في تحقيق المثالية لا ينفىها. لأن التمسك بالمثل العليا في المساواة، وقد أعلنت، تعمل عمل الخمائر في الفكر الأمريكي ».



واختتم هذا المقال بالشعار القائم على رأس صفحة الرأي بجريدة «تشيكاجو تريبيون» منذ صدور أول عدد لها في ١٠ يونية عام ١٨٤٧ :  
الجريدة منشأة نمت بالحضارة الحديثة، لتقديم الأخبار اليومية، ولرعاية التجارة والصناعة، ولتنوير الرأي العام، وقيادته، ولكي تقيم الرقابة على الحكومة التي لم يتمكن دستور من الدساتير من القيام بها».

## رؤية شعب من الداخل ..

لم أكن في رحلتي الأمريكية غير ضيف عابر سبيل دعاه «مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر» - بصفتى عضو شرف به - إلى الاجتماع السنوى لأعضائه بمدينة بوسطن، حيث تلقى المحاضرات العلمية المتخصصة في حضارات مصر: فرعونية، ومسيحية، وإسلامية، وفي دراسات المجتمع المصرى الحديث. ولقد دعتنى بهذه المناسبة خمس جامعات للتحدث في موضوعات مصرية اخترت لها أربع محاضرات تمثل نشاطى العلمى والثقافى فاكتفت كلها باختيار موضوعين من أيسرها تناولا، ومما يتصل بشئون الأقسام صاحبة الدعوة، وهى أقسام الشرق الأدنى بجامعة نيويورك سیتی وهارفارد، وبرنستون، ويوتا ( بمدينة صولت ليك سیتی )، وواشنطن ( بمدينة سياتل على شاطئى الباسيفيك، إلى الشمال الغربى من ولاية واشنطن ).

لو أننى عشت أربعة أسابيع الرحلة في مدينة واحدة، لاستطعت اكتشاف حياة هذه المدينة، والتعرف على صورة أقرب إلى الصحة للحياة الأمريكية في تلك المدينة. أما أن أزور في أربعة أسابيع. ثمان من المدن خطأ، فما كان أشبهنى بما كنت أسمعه في أوروبا تندراً بالسياح الأمريكين في عمومهم.

كانت تلك الزيارات الخاطفة في مجموعها اتصالاً سريعاً بالجامعيين حتى في البلاد التى لم أحاضر بجامعةاتها، مثل واشنطن دى. سى. ( أى

دستريكت أوف كولومبيا توكيداً لأن المقصود هنا هو عاصمة الولايات المتحدة، لا ولاية واشنطن السابق الإشارة إليها). وسان فرانسيسكو (جامعة بيركلي)، وشيكاجو.

ولقد أحسست بأن صورة الحياة الأمريكية - على ما بها من تشابه سطحي، هو الواقع دائماً في الأمة الواحدة، أى التشابه المادى في «صناعة الحياة» فهي تتميز في كل مدينة زرتها بطابع خاص: أهل الشمال الشرقى في الولايات التي تعرف في مجموعها باسم «نيو إنجلند» يبدون لى مختلفين إلى حد واضح. عن أهل الغرب الأقصى (في ولايتى واشنطن وكاليفورنيا).

وأن مدينة مثل صولت ليك سیتی، عاصمة ولاية يوتا، إلى الغرب من سلسلة «الروكى ماونتنز» قد انطبعت انطباعاً وثيقاً بحياة منشئها. وهم «المورمون» تلك الطائفة التي أنشأ مذهبها المسيحى الخاص في ثلاثينات القرن الماضى، جوزيف سميث. وتعرف كنيستها باسم «كنيسة قديسى آخر الزمان»، وهى الولاية الوحيدة التي تجمع في حجرات فنادقها بين «الكتاب المقدس»، و«كتاب المورمون». ولعلى أعود إلى هذا الموضوع في فرصة أخرى.

وأن سان فرانسيسكو، وإن ذكرتني بنيويورك في ازدهامها، واتساعها ووقوعها على شاطئ إقيانوس هام، فقد شعرت بأن أهل شاطئ الباسيفيك فيهم ساعات إنسانية تختلف عن ساعات أهل نيويورك معترك المال والتجارة، وعاصمة الاقتصاد الأمريكى كله.

وأن عاصمة الاتحاد الفيدرالى، واشنطن دى. سى. فرضت على الاحترام والحب، بهدونها الشاعرى على ضفاف نهر البوتوماك، وبطرقاتها



الفسيحة الممتدة، التي تتوهج نظافة بين مبانيها السامقة دون مغالاة، ينشرح الصدر لمراها. لم أشهد في واشنطن زحام الأفاريز، إلا على الضفة الأخرى لنهر البوتوماك، أى فى قسطها، أو ضاحيتها التابعة لولاية فرجنىا، والمعروفة عن قديم باسم «جورجتاون». أما شيكاجو، فإن موقعها على ضفة بحيرة ميتشيجان، يتمثل فى جمال ناطحات السحاب أصدق تمثيل. على عكس ناطحات نيويورك. فهذه شىء مخيف، مقبض، لا يخففه سوى الشطر الشمالى من الجادة الخامسة (فيفث آفنيو)، إذا أتيح تأملها من واجهة مانهاتن على السنترال بارك، أو من فوق سطح القاعدة المقام عليها تمثال الحرية ببناء نيويورك ولن أنسى، صبيحة خروجى إلى كورنيس ميتشيجان، على مقربة من الفندق، واتجاهى إلى الشمال سيراً على الأقدام نحو ساعة حتى بلغت وسط المدينة الباهرة الزاخرة، شيكاجو. فناطحات السحاب تبدو هنا بنظامها الكامل. وجمال عمارتها شىء رائع كل الروعة. ولقد عرفت فى شيكاجو أن الفضل فى عمارة الناطحات راجع إلى معماريها العظام، وكانوا أول من ابتدع ذلك الفن المعماري الخاص بالعالم الجديد (فرانك لويدرايت، سوريين، فالترجوربيوس، لودفيج ميس فان دوروهه).

وعندما عدت إلى بوسطن حيث نزلت ضيفاً على «مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر» حضرت مآدب أعضائه واستمعت يومين كاملين إلى محاضريهم المتخصصين فى الفن الإسلامى والحضارة الفرعونية، والمجتمع المصرى الحديث، والمناقشات التى دارت عقب كل محاضرة.

وبوسطن حاضرة ولاية ماساتشوستس هى مهد الحضارة الأمريكية، ومركز حركة التحرير والثورة على الإنجليز، لا يفهم قيمتها - كعاصمة

للفن والأدب والعلم - إلا لمن يعرف أصول التاريخ الأمريكى منذ مجئ الآباء الحجاج، على السفينة (ماى فلاور) فى مطالع القرن السابع عشر. ويمكن القول إجمالاً بأن مجموعة الولايات فى الشمال الشرقى للبلاد المعروفة باسم «نيو إنجلند» هى التى أنبتت أبطال الثورة والدستور، منشئى هذه الدولة العظيمة: واشنطن وجفرسون وهاملتون وبنيامين فرانكلين وأسرة أدامز أعرق الأسرات الأمريكية، وجلهم إما من مدينة بوسطن، أو من ولايتى ماساتشوسيس وفرجينيا. وضاحية كامبردج إلى الشمال من نهر تشارلس، تربطها ببوسطن تسعة من الكبارى، أنشئت سنة ١٦٣٠ وأطلق عليها سنة ١٦٣٨ اسم المدينة الجامعية الإنجليزية المشهورة، وقد اشتهرت بدورها منذ قامت فيها كلية اللاهوت (١٦٢٦)، وأصبحت بهذا أقدم وأوسع جامعات للولايات المتحدة صيتاً. أطلق عليها اسم جون هارقارد القس البيوريتانى (١٦٠٧ - ١٦٣٨)، منذ أن أهداها بضع مئات من الجنيهات. وتحولت تحت رئاسة شارلس إليوت (١٨٣٤ - ١٩٢٦) إلى جامعة حديثة مستكملة كلياتها (فى ثلاثمائة مبنى) ومنشآتها، حتى أصبحت وسط كامبردج مدينة جامعية كاملة، فيما عدا كليتى الطب وطب الأسنان، القائمتين بمدينة بوسطن.

كان طبيعياً أن أغدو شديد الإعجاب بالتاريخ الأمريكى، وقد عرفته متأخراً جداً، لأن حياتنا الثقافية بمصر، بعد أن تفتحت على أوروبا، لم تعرف سوى تاريخ فرنسا، وخاصة منذ ثورتها الكبرى. وأقل منه تاريخ إنجلترا، ويمكن التسلسل فى قلة المعرفة عند ذكر البلاد الأوربية الأخرى. فنحن نجهل تاريخ ألمانيا الحديثة، ونعرف من التاريخ الإيطالى عصر النهضة الفاخر، نقفز منه إلى عصر الوحدة الإيطالية فى أواخر القرن

الماضى ومن تاريخ روسيا نذكر بعض آثار وأعمال بطرس الأكبر ، منشئ سان بطرسبورج ، عاصمة القيصرية . كما نطلع على أعمال كبار أدبائها وموسيقييها . مما يجعلنا نلم ببعض تاريخ روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر . فإذا انفجرت الثورة الروسية عام ١٩١٧ . بدأت معرفتنا بها مبتورة بسبب حصار الغرب لها وراء ما عرف « بالنطاق الصحى » ، وجدد الاسم الاستعماري ونستون تشرشل عندما تحدث عن « الستار الحديدى » . ولكننا تابعنا بعض مسيرة لينين وهو حى ، وسمعنا بوفاته ، وازداد اطلاعنا على الاتحاد السوفيتى فى سنوات الحرب العالمية الثانية ، عندما كان للجيش الروسى البطل دور كبير فى القضاء على الطغمة النازية . بدأت متابعة التعرف على أمريكا من بعض الكتب الصغيرة المهداة إلى ، ومن كتاب رائد حقاً هو « تاريخ الجيب للولايات المتحدة » ، تأليف نيفنز وهنرى كوماجر . وتاريخ أمريكا صورة لأثر ثقافة تالدة ( الحضارة الأوربية ) على قضاء متوحش ، استعمره المهاجرون الأوائل ومن تبعهم ، فاستطاعوا أن يقفوا بالعالم الجديد فعلا عبر آلاف السنين من تاريخ الحضارة الأوربية أظهرت تلك البلاد الشاسعة على مسرح التاريخ جريئة نامية متحفزة . ذلك لأن المستعمرين الأوربيين الأوائل كانوا رجال حضارة نقلوا إلى القارة الأمريكية حضارة القرون السالفة .

كان نمو الولايات المتحدة حدثاً جديداً على التاريخ . لأن القضاء المتوحش بغاباته وصحاريه وجباله وأنهاره ، روافد الميسيسيبى يواجه الرواد من شواطئ الأطلنطى حتى شواطئ الباسيفيك فكان من آثار ذلك اللقاء القاهر بين خليط من الشعوب والأجناس والملل والنحل تعديل الثقافات والمؤسسات الموروثة . إن إنشاء وتحقيق الاتحاد الأمريكى أعظم التجارب طموحاً ، نتيجة هذا الخليط يجمع بين الخير والشر والفن ، والروح العملية



والمثالية عند الإنجليز والإسكتلنديين والأيرلنديين والجرمان والطلليان والإسكندنافية، والتشييك والمجر والأسبان، واليهود من هؤلاء وأولئك ومن بولندة وروسيا... إلخ.

أقول: كانت أمريكا أعظم التجارب نجاحاً من أثر اختلاط كل تلك الشعوب والأجناس تأكدت فيها الحرية الدينية والسماحة بين العناصر المختلفة، والمساواة الاجتماعية، والفرص الاقتصادية المتاحة، والديمقراطية السياسية. وإذا بحثنا عن «التيما» [اللحن الأساسي] في الحياة الأمريكية فإننا لواجدون قطعاً في نمو الشعب على قدر من الذكاء والخبرة كاف للحاجة القصوى إلى الحرية، وعلى استعداد للعمل في سبيلها، بل وللکفاح من أجلها.

## لعبة الشوافين والمشوفين

ارتأيت ، حيال صعوبة النفاذ إلى بعض صميم الحياة الأمريكية في رحلة خاطفة ، أن أُلجأ إلى انطباعات الروائيين المؤسسة على تصوير ناقد ، وخاصة بعد أن قرأت هناك كتاباً جاداً - وليس رواية - أقلق راحتي ، لما جاء به من وصف لما سماه المؤلف «الدبلوماسية السرية» للحكومة الولايات المتحدة ، بعد كل ما عرفت عن فضيحة ووترجيت التي ما فتئت عفونتها تزكم أنوف الشعب الأمريكي . صور صاحب كتاب الدبلوماسية السرية بطريقة أشبه بالقصص البوليسى - وهو يروى فيها يزعم وقائع صحيحة - كيف تقوم الزعامات ببعض البلاد المتخلفة ، عندما تحاول «الدبلوماسية السرية» إبعاد تلك البلاد عن المحذور الاجتماعى ، ( طالع : الخطر الشيوعى ) .

قرأت في هذا الكتاب المعقد العجيب كيف يعد «الدبلوماسيون» المختفون الحُكَّام في تلك البلاد . وهم في هذا أشبه بفنان الأراجوز ، يعد شخوصه الخشبية ذات الأسمال لعرضها في جوسقه ، ويجعلها تتكلم من بطنه حسب سرد قصتها .

تقززت نفسى من هذه الإجراءات التي إن صحت - وأشك في تمثيلها واقعاً بعينه - فاللعنة على من يقومون بأمثال تلك الألاعيب ، وعلى من شاركوا أو تحركوا بفعلها عن إدراك أو غير إدراك .

لا شك أن بلوغ القمة في عالم «الإنجازات الحرة» ، والاندفاع في

طريق الحضارة الآلية، فيما يوصف بالتكنولوجيا، والتكنوقراطية، قد خلق مشاكل اجتماعية خاصة بمجتمع الرفاهية، القائم على تضخم في الصناعة، والاستهلاك ولقد طالعت صورة جانبية، خيالية، في قصة وقعت بين يدى صدفة في خلال انتقالاتي. قلبت صفحاتها متعجلاً دون اهتمام كبير، وأعدتها لصاحبها بعد الإلمام بفكرتها. وإذ بي ألتقى بتلك القصة مترجمة إلى الفرنسية، ونشرت في أثناء إقامتي بباريس بعد انتهاء رحلتي الأمريكية، فلم أعن باقتناء الترجمة، مكتفياً بما كتب عنها النقاد في الصحف والمجلات الفرنسية.

كتاب الدبلوماسية المتخفية يزعم أنه يصف وقائع حدثت. أما القصة فمن بنات أفكار مؤلفها، يصور لعبة اجتماعية لا سياسية، ولا شأن لها بدول متخفية بل بالمجتمع الأمريكي ذاته في المدن الضخمة المتخمة. كاتبها رجل من أصل بلغاري أمريكي التبعية اسمه أزي (على وزن عزي) أبراهامى. حظيت القصة لدى ظهورها سنة ١٩٧٢ بإعجاب اثنين من أشهر النقاد الأمريكيين (مارشال ماك لوهان، وأنطوني برجى)، على الرغم من أنها تنضوى تحت مؤلفات بعض اليهود الأمريكيين الذين درجوا على النقد القاسى للنهج الأمريكى فى الحياة (أمريكان واى أف لايف). وهذا القصص الأمريكى المعنى بما يوصف بأزمة الحضارة الصناعية اتخذ مجراه فى تيارين: تيار الروائى دوس باسوس، وزميله باروز (راجع مقالا عن رواية للأول فى إعداد السنة الأولى لمجلة «المجلة»)، وفيها يفتت الكاتب جسم السرد الروائى، رمزاً إلى تفكك المجتمع. والتيار الآخر يستعير أسلوب القصة الفلسفية تتندر باختلال المجتمع وتضخمه. وقصة إزي أبراهامى وعنوانها «لعبة المجمعات السكنية» تنهج الأسلوب الأخير.



أمريكي من الطبقة الوسطى، لا يحدد المؤلف عمره ولا اسمه يعيش بين الزوجة «خيرة العكنة»، والتليفزيون في شقته بتلك المجمعات التي تشبه علب الكبريت أو خلايا النحل وتبنى لأوساط الناس في بلوكات شاهقة تتواجه حول باحة مزروعة (ربما)، هي متنفس الآلاف من سكانها.

يضيق الرجل بشعور المحكوم عليه بنمط واحد في الحياة، لا يتغير بين مقر عمله، ومسكنه، وتليفزيونه الملون، وسريره بالإضافة إلى تعليقات زوجته.

يخرج ذات ليلة إلى الطنف يتأمل أمامه عن بعد أو قرب، ماثات النوافذ، تداولها الإضاءة والإظلام، فيرى وراءها «عالم الآخرين». ما أشبه المنظر بالصندوق الآلي (الجوك بوكس) الذي تحتويه مقاهى أوروبا وأمريكا، ويعرف فيما أظن بالبلياردو الكهربائي.

يحدث نفسه وهو يحدد بصره إلى نافذة فيقول: «إذا أطفئ نور النافذة الثالثة من الدور الثاني في البلوك حرف د، قبل عشر ثوان فإنى أهجر زوجتى. ولم يطفأ النور، ولا هجر العقيلة، بل اخترع «لعبة المجمعات السكنية، فمن يرى زنجياً في إحدى الشقق يكسب ١٥ بنطاً (لقلة الزوج في تلك المجمعات)، ومن يكتشف خلوة شرعية يكسب ٣٢ بنطاً، ومن يرى أكوار يوم سمك أحمر يكسب ٦ أبناط. أما من يشهد مكنسة كهربائية (منظراً معتاداً) يخسر ٧.

وتبلغ خسارته ٧٣ بنطاً إذا رأى امرأة عارية (منظراً دارجاً معتاداً). وهذا اكتشف «شواف البلكون» لعبة أكثر إثارة من سخف التليفزيون. لعبة منزلية أنيسة، تشاركه فيها العقيلة، فتعقل لسانها عنه ولو قليلاً.

لا حاجة لمن يمارسها إلا إلى لوحة حساب، ومنظارين مقربين. ينظر اللاعب المخترع إلى مئات النوافذ أمامه. ويبدأ لعبة الكشف، وتسجل الزوجة حقه من النقط حسب القائمة التي رصداها مقدماً. ويسجل هو للزوجة حسابها. والمفروض - كما ذكرت - أنه كلما كان المنظر نادراً غير معتاد ارتفع رصيد النقط: أسرة من الزوج: ١٥ بنطاً، تليفزيون مطفاً: ١٢ بنطاً خلوة شرعية: ٣٢. رجل يقرأ شعراً: ٦٣: أما من يكتشف قارئاً أو قارئة لرواية من روايات جيمس جوين، أو مارسيل بروس، فالشواف يكسب نهائياً. وحساب السالب: امرأة متجردة يخسر الشواف ٧٣ بنطاً، مكتسة كهربائية يخسر ٧ أبناط... إلخ.

حل الوثام بين الزوجين بفضل اللعبة الشيقة التي تحت على الأقل التليفزيون من حياتها. ولكن اللعبة أثارت الرعب وسط السكان: فمن هؤلاء الجيران يباشرون مراقبتنا عياناً بياناً دون خجل، أو محاولة الاختفاء. ماذا يراقبون؟ أهم من رجال الشرطة السرية الذين تبثهم مصلحة الضرائب، مثلاً. أم هم من «الشوافين» الملحوسين بالجنس «وكلما سدر الزوجان في غيها الشاذ، ارتفعت درجة القلق، إلى أن ضم السكان شملهم لتبادل الرأي فيما يصنعون ليقفوا هذا الكشف عن العورات. وينتهي الأمر إلى الشرطة، والتحقيق الذي لا يسفر عن شيء. فلا مؤاخذه على لعبة التسالي بين زوجين ضاقاً ذرعاً بالعيشة وبالتليفزيون.

لعبة التسالي. والله فكرة! وانتشرت لعبة الشوافين بين آلاف السكان في مئات المجمعات ذات الساحة المتوسطة، أو التي تتواجه في الشوارع الصغيرة. وإذا كانت اللعبة واحدة في فكرتها، فليس معنى هذا التوحيد في

التقدير . وقد اتضح لخيال المؤلف النقاد اتجاه الأغلبية إلى أن الظافر في اللعبة لا يكتشف قارئ بروسست ، بل من يسعده الحظ بالكشف عن ... قارئ أو قارئة .. للكتاب المقدس . كذا ! .

ويتطرق المؤلف ازي أبراهامى إلى فلسفة اللعبة ، وهى محاولة الفرد والمجموع التخلص من رتابة الحياة ، وقلة طعامها ، والخروج عن « القطيع » متميزاً عن الجماعة . فقد تحول سكان المجمعات إلى « شوافين ومشوفين » ، كل يحاول الظهور على الآخرين ليكسب فى لعبة « الاستاندنج » ، وهو التميز الاجتماعى ، كما حاول فى مظهر حياته وملبسه وطعامه ، ولهوه وركوبته .. وتليفزيونه الملون ، وغير هذا من الوسائل التى لا تعد ولا تحصى فى المجتمع الاستهلاكى .

وتفقد لعبة الشوافين سحرها ، وإسعادها للناس ، وبالتالي أثرها العلاجى لمجتمع مصاب بالتبرم ، والحساسية الاجتماعية ، فى حضارة البلف ، والمظاهر الخداعة ، وكل ما ينتهى بهم إلى الإخفاق درجة تفوق الاحتمال ضحيجاً ، والاجهاض .

قصة معاصرة ، فيها ميسس من القصص الفلسفى الساخر ، ينقد بعض مظاهر الحياة الأمريكية ، وبالأولى حياة المجتمعات التكنولوجية الاستهلاكية ، ويصور حياة « التشوف » لمجتمع كسيح الحياة العاطفية التى لا تمتد إلى أطول من ذراعه . فهو يقول لنا : تأملوا فترينات الأفنيو الخامس ، وأرصفته الواسعة ، ملتقى ومسار المجتمع « الشواف » الباحث عما يميزه فيما إذا اقتنى بعض ما يشاهده فى فخامة أضواء الفترينات . هلا يتساءل رجل البلكون عن الحل الحقيقى لحياته ؟ أهو الهروب من المدينة العملاقة إلى أرباضها ، بل إلى الفضاء الفسيح حولها ، ليشغل نفسه



« بتعهد حديقته » على حد قول فولتير . هل الحضارة شيء أكثر من أن يعنى الإنسان بزرعه وجنيه وحصاده .. وبأزهار الحياة ؟ .

حاشية : عرفت بعد كتابة هذا أن الحكومة الأمريكية تشجع منذ عام ١٩٤٥ بناء الفيلات خارج المدن . وقد أدى هذا إلى أن شركات النقل العام لا تستطيع أن تؤدي مهمتها دون خسائر كبيرة . فكل هؤلاء السكان المنتشرين في خلاء واسع مشقت ، بعيد عن المدينة ، لا يهمهم أمر النقل العام ، ولهم في سياراتهم الخاصة . ثم علمت بعد هذا من خبر قرأته ، أن الرئيس جيرالد فورد تقدم بقانون مالى يخصص مبلغ ١٥ بليون دولار لمساعدة شركات النقل المشترك في المدن الأمريكية على مدى السنوات الست القادمة ، لأن هذه الشركات في طريقها إلى الإفلاس العاجل ، وقد نقصت نسبة من يستعمل أتوبيساتها من ١٦ في المائة عام ١٩٥٠ إلى ٤ في المائة سنة ١٩٧١ ، في حين ازدحمت شوارع وسط المدينة ( داون تاون ) بالسيارات الخاصة والتاكسى إلى درجة تفوق الاحتمال ، ضجيجاً وإفساداً للجو .

## صورة مشرقة لحياة صحفي أمريكي

ليس من الإنصاف الوقوف عند تصوير ازى أبراهامى، فى لعبة «الشوافين والمشوفين» لعب من عيوب الحياة الأمريكية، وما أكثرها، علماً بأن الأمريكان وأدباءهم على الخصوص، لا يقصرون بل هم يتمادون فى الكشف عنها. وشاءت المصادفة، بعد الانتهاء من مقالى السابق بباريس، أن تنعى شركات الأنباء العالمية الصحفي الأمريكى الكبير وولتر ليمان. توفى فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٤، وقد بلغ الخامسة والثمانين. وبمجرد سرد سريع لحياة هذا المعاصر النابه، تعطينا صورة نموذجية للنخبة الممتازة فى مجتمع الولايات المتحدة.

كان وولتر ليمان مؤسسة قومية، وضع أرشيفه الخاص فى قسم المخطوطات بجامعة «ييل». لعب الرجل دوراً كبيراً فى الحياة الفكرية الأمريكية، لم يبرز فيه بكفاح الأكتاف فى مجتمع المنافسة واللكم تحت الحزام، ولكن بحق ألمعيته وذكائه، وصدق نظره. اكتشفه الفيلسوف وليام جيمس «شقيق الرواى الشهير» عندما طالع مصادفة، وفى العام الأخير من حياته «١٩١١» مقالا للطالب وولتر ليمان فى الصحيفة الشهرية لجامعة هارفارد.

ولد ليمان عام ١٨٨٩ من أبوين ثريين آل ثقافة وعقلانية، منحدرين من نسل يهود ألمان هاجروا قديماً فيما يوصف «بالمهجرة الألمانية اليهودية المحترمة، ويبدو أنه لا اليهودية ولا أى دين آخر، لعبت دوراً فى تكوين

الشاب وولتر، وقد تلقى التربية « الهيومانية » التي يحصلها أبناء الطبقة الميسرة. التحق بجامعة هارفارد المتفتحة لكل الآراء. وهناك تعلم على وليام جيمس والفيلسوف الإسباني سانتيانا، والاشتراكي البريطاني تشارلس إليوت. فنشأ الفتى حساساً بشقاء الإنسانية، وترأس في هارفارد النادي الاشتراكي، وكرس بعض وقته للمساعدة في مركز العناية بالمعوزين. ثم اكتشف أنه لا يصلح لهذا ولا لذاك، فكانت حياته فيما بعد توازناً بين الاجتهادين.

بدأ حياته الصحفية في جريدة تقدمية بمدينة بوسطن. وعندما انتقل إلى نيويورك عاشر التقدميين السياسيين، والفنانين من الطبقة الثرية التي تغامر في الحياة الاجتماعية دفاعاً عن قضايا العصر. فخرجت من هذا الوسط مجلة أسبوعية متواضعة حجماً ومظهرًا. ظهر أول عدد منها سنة ١٩١٤، وعاشت إلى اليوم، وهي « الجمهورية الحديثة » تدافع عن السلام دون التسليم. وبمعنى آخر، كانت مجلة ليبرالية تميل إلى اليسار. وفي عام صدورها ذاته، تأهب ليمان لقضاء بعض الصيف في سويسرا ماراً بألمانيا..... وإذا به يفاجأ بخبر تقديم ألمانية الهوهنزوليرن إنذارها إلى بلجيكا، وإقفال الحدود نذيراً بالحرب. وفي عام ١٩١٦ - وقد قامت الحرب الضروس الأولى - نادى في « الجمهورية الجديدة » بإعادة انتخاب الرئيس وودرو ويلسن عن « الحزب الديمقراطي ». ودرجت المجلة على موازنة ويلسون مدى العامين التاليين. وإذا كان ليمان على صلة وثيقة بالكولونيل هاوس، القوة الخفية وراء الرئيس ويلسون، فقد أوفده هذا إلى باريس في مهمة دعائية. وهناك كلفه هاوس بإعداد مشروع بلاغ يقدمه ويلسون إلى الحلفاء.

وكان هذا هو الأصل فيما عرف باسم «نقاط ويلسون الأربع عشرة»، ومن بينها نقطة ارتكاز دولية للحركة الوطنية المصرية «ثورة ١٩١٩». وإذا بالحلفاء الكرام بقيادة بريطانيا الظافرة، يحجون رئيس الولايات المتحدة إلى الاعتراف بالحماية البريطانية المبسوطة على مصر. ويدرك ليمان عندما يتغلب النمر كليمانصوه، والثعلب لويد جورج على ويلسون «الملائكى»: إن المغامرة على صلح عادل بين المتحاربين.. خاسرة، فيعود إلى المجلة ليكتب ضد توقيع معاهدة فرساي.

ينفصل ليمان عن «الجمهورية الجديدة» لينخرط في سلك محررى صحيفة «الويرلد نيوز»، التى تسقط عام ١٩٣١ أمام حملات «النيويورك تايمز» و «النيويورك هيرالد» و «التربيون»، فيلتحق بهذه الأخيرة، ويبقى بها مدى ثلاثين عامًا محرر مقالين كل أسبوع بعنوان ثابت «اليوم وغدا» يطالعها مئات الآلاف من القراء فيما يعبر به الصحفي النابه عن الوقائع والرجال ذوى النفوذ وقد قفز دون جهد إلى الصفوف الأولى من الصحفيين ذوى الرأى الناصع الرصين. لم ينخدع بنفوذه، وبقوة «المعلق على الرجال والأحداث»، والمعلق على كلامه، ولكنه لم يفقد الأمل فى اعتباره ناصحًا سقراطيًا ديموقراطيًا لزمانه، وأهل زمانه.

كان ليمان أولا وقبل كل شىء ابن عصر «التنوير»: (بعقلية فرنسية، وتمسك جاد بإعمال الرأى)، كما كتب عنه صديق. وكاتب آخر يصف أسلوبه «بالتحفظ الدقيق المتعقل، متجنبًا إثارة الفزع... لأن ليمان لا يدخل المعارك بل يراقبها عن بعد، من موقف الموضوعية». يقول بأنه لا يعالج الشئون السياسية إلا بوجه عام. وليس مستعدًا لرفع راية، والاندفاع بها إلى المعركة. سر نجاحه فى ربع القرن الأخير أنه يعمل على



ضوء الحجا في معالجة المسائل الخارجية والداخلية ، لا يتكلم عن شخصه ، ولا يعنى بالأمور الشخصية ، ولا بالمخططات الصحفية والتنبؤ . كلامه يبنى على معلومات وثيقة . وهو القائل : « ليس كافياً أن ننقد سياسة رجل عام ، يجب علينا أن نتصور أنفسنا مكانه ، في جلده ، لأننا بدون مواجهة الحقائق التى واجهها ويواجهها ، لن نصل إلى غير ما يشبه القائل : أنا أحسن منك .

كتب ليمان فى آخر الثلاثينات : « لتقوية دوام الجمهورية فى عصور الحروب والثورات ، واجب وضرورة أن نحافظ على اقتران الحرية ، كما مارسها جفرسون ، والسلطة ، التى طالب بها هاملتون . وليس أضر بنا من عدم الإحساس بهذين المبدأين : الحرية التى لا تفرق عن السلطة ، وعشق الحرية . مبدأن يدفعانا إلى سن قوانين تدافع عنها ، وتقومها . كما أن التوجس من الحرية يجبرنا إلى إنكارها وخنقها . إنما الحرية فى حماية القانون المرضى عنه من الناس هى التى تعمر طويلاً .»

هذا كلام يقوله صحافى عاصر ١٢ رئيساً للولايات المتحدة « من مجموع ٣٨ رئيساً منذ « جورج واشنطن » . تلقى دروسه الصحفية من أسرار حياة أغلبهم ، وكأنه هدف إلى أن يصبح المفكر السياسى لعصره وقد كان ، بشهادة أكثر من مؤرخ .

حيا الرئيس جيرالد فورد ذكرى الفقيد فى برقية التعزية قائلاً : « أمريكى عظيم قام بدور كبير على مدى نصف القرن ، مبرزاً فى تنمية المساجلات العامة ، وفى بلوغ مستوى جديد للصحافة » .

بعد عام ١٩٣٨ انتقل ولترليمان إلى واشنطن ووسع أفقه . وحينذاك بدأنا هنا بالتعرف على الرجل من قراءة بعض كتاباته فى شتى القضايا ،

حيث أصدر كتابه « سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية » ينادى فيه بالتبعات التى تتحملها بلاده أمام العالم . وفى كتابه « الحرب الباردة » ، نادى بأنه لاسلام دون جلاء كافة الجيوش عن المانيا . ويتساءل الصحفى الفرنسى جان لاكورتور : « هل كان التزمت البيوريتانى الأمريكى يجد مثالا لتجسيد وظيفة الناقد السياسى مثلما وجد فى ذلك الفحص الدقيق الذى دفع بصحف «الواشنطن بوست» و «النيويورك تايمز» و «اللوس أنجيليس تايمز» إلى الكشف عن أكاذيب الرئيس نكسون ، وعن العصاة التى فرضها على الشعب الأمريكى » . ويشهد لاكورتور بأنه ، وقد عرف ليمان شخصياً منذ عشر سنوات ، بأن الرجل لم يضعف مرة واحدة ، ولا تقاعس فى كفاحه ضد طغيان الإمبريالية الأمريكية ... قال ، وقد بلغ الثالثة والثمانين ، فى آخر لقاء بمنزله مع الصحفى الفرنسى : « إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون ، أسوأ من كل مارأيت فى حكم الأحد عشر رئيساً الذين عرفتهم » كان الحديث قبل تولى فورد . أن روح الديمقراطية فى خطر . والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة . لقد قسوت على آل كنيدي ، بالرغم من ثراء أفكارهم ، ولكن الأهم والأساس فى الحياة العامة ليس الألمعية ، وإنما هو القوام الخلقى » .

## نموذج من أزمات المجتمع الأمريكى ووسائل إصلاحها

نحاول فى بلادنا معالجة أزمات المجتمع المصرى بصدق نية، وأشعر أن سلامة الوسائل، وأن تعثرت، فإن النوايا الصادقة لدى المحكومين والحاكمين، واصله بنا إلى بر السلامة والسلام، على قواعد أمينة آمنة، أولها تحرير الأرض، وآخرها تنظيف أسطبلات «أوجياس» من المرتشين، والمتسبين، والمستهترين، وفاقدى الكفاءة، ضعاف القدرة إلا على خدمة أنفسهم.

ولقد حاولت فى هذه الفصول، نتاج رحلتى الخاطفة، النفاذ إلى المجتمع الأمريكى لا عن طريق دراسة مكانية، ولكن بتناول تكوينه التاريخى، منذ الهجرات الأولى فى القرن السابع عشر. وقد اتضح لنا أن «الآباء المؤسسين» للديموقراطية الأمريكية، وللوحدة الفيدرالية، كانوا متفتحى الأعين على التعليم والتربية، والممارسات الاجتماعية، كأساس صحيح متين فى ظل دستور ثابت، وقابل للإضافات التى تفرضها سنن التقدم، وتحت رقابة قانونية من محكمة دستورية عليا. وأن قيام المجتمع على هذه القواعد فيه كل الضمان للحرية التى لا تتجزأ، وللديمقراطية الهادفة إلى المساواة، على حد قول هوبهاوس (السياسى البريطانى): «الحرية بدون المساواة اسم فخيم الرنين، زرى المضمون». ومن هنا جاء التوكيد فى النصف الثانى من القرن الحالى على النواحي الاقتصادية والاجتماعية التى يدور فيها الكفاح من أجل الحرية. ومما حفظ للنظام اللبرالى حياته هو

بعض العناصر التي مكنته من إقامة مجتمع متفتح، وحياء هائلة نوعاً.  
وبيان هذه العناصر:

- ١ - باب الترقى المفتوح للكفاءة والموهبة.
- ٢ - المبدأ الذي لا يهدف إلى المساواة بذاتها، ولكنه يفتح الباب على فرص متساوية أمام المجتمع.
- ٣ - إرساء القرار على الموافقة العامة.
- ٤ - ازدياد الطمأنينة الاقتصادية بدون تضحية بالحرية.
- ٥ - تحويل تيار يمكن أن يثير بطريقة ما نزاعاً اجتماعياً طبقياً، إلى نزاع سياسي فحسب.

وأخيراً: المبدأ الذي يعتبر كل فرد حاملاً في طيات نفسه قوة مكنونة يجب إعطاؤه الفرصة لإظهارها [ الموسوعة البريطانية ].

وأهم ما اعتور الديمقراطية الأمريكية من عقبات، وأشدّها خطراً: شراسة الرأسمالية التي استفحلت في مجتمع القرن التاسع عشر، استفحالا يفوق ما حدث في غربي أوروبا نتيجة للثورة الصناعية - ولعل السمعة السيئة للمجتمع الأمريكي مصدرها الصورة البشعة التي ذاعت في العالم المتحضر عن مساوئ ذلك المجتمع، وخاصة ضراوة رأس المال، وشركات الاحتكار لأغلب حاجات الشعب.

ومن المفيد لنا أن نستعرض صورة سوداء للمجتمع الرأسمالي في الولايات المتحدة في السنوات التي تلت انتهاء الحرب الأهلية، وخاصة في الربع الأخير في القرن الماضي، وكيف واجهها المصلحون من رجال السياسة والاجتماع، ومن الكتاب والشعراء والفنانين حيال الهياج والمظاهرات التي قام بها الشعب من الفلاحين والعمال.



وصورة الكشف عن العلل التي تنخر كالسوس في كيان الديمقراطية، استغرقت حوالى العشرين عاماً من ١٨٩٤ حتى تولى الدكتور وودرو ويلسن رئاسة الولايات المتحدة في ١٩١٣. وقد بدأت بخطيب مدره من أعضاء الحزب الديمقراطى، كان أقواهم كفاحاً، ومع أنه سقط في كل انتخابات دخلها ( لعضوية الكونجرس أو لرئاسة الجمهورية ) فقد ظل ثلاثين عاماً هو الرائد المفوه، والزعيم المؤيد للحزب الديمقراطى.

اسمه وليم برايان، شاب من ولاية نبراسكا، أخذ يحرض حزبه على الانضمام إلى ما عرف « بالتنظيم الشعبى ». لم تر السياسة الأمريكية من قبل شيئاً شبيهاً بما قام به هذا التنظيم من هياج اجتاح السهول ومزارع القطن. وصفه شاهد عيان بأنه كان في تعصبه لمبادئه شبيهاً بالصليبيين. ينهى أفرادهم أعمالهم اليومية ثم يتجهون إلى مكان الاجتماع، إنما يكون هذا المكان، شونه أو مدرسة، ليستمع إلى مواطنة من كنساس تطلب من المزارعين « أن ينتجوا غلالاً أقل، ويشعلوا نار جهنم على الظالمين ... إن وول ستريت ( حى الأعمال بنيويورك ) هو الممتلك للبلاد.. لم تعد الحكومة للشعب ولا هى من صميم الشعب، أو من أجل الشعب. بل هى حكومة وول ستريت، من صميم وول ستريت، ومن أجل وول ستريت. قوانيننا خرجت من نظام يحسن هندام الأوغاد، ويلبس النزاهة والشرف أحقر الأسمال ». ويعلن المزارعون: « إن تاريخ الولايات المتحدة في الثمانية والعشرين عاماً الماضية، هو سلسلة إساءات، وظلم، واعتداء، ولا مثيل لها في تاريخ العالم. وكل القوانين تهدف إلى غرض واحد، هو إقامة أرستقراطية المال على خرائب ما كان في الماضى أمريكا الحرة ».

كانت الحالة سيئة عام ١٨٩٢، وتزداد سوءاً مدى عامين، ويضرب

عمال مصانع برلمان، وتتجه مسيرة العمال المتعطلين إلى العاصمة، وتنهار أسعار المحاصيل: القطن والغلال، وينضم كثير من أعضاء الحزب الديمقراطي إلى «التنظيم الشعبى».

أثار الشعب قضية التضخم النقدى، فى مقابل الانكماش. وكان المحافظون منحازين إلى جانب الانكماش، والثائرون ينادون بالتححرر النقدى، وضرب السكة الفضية إلى أقصى إمكاناتها، بصرف النظر عن أثر ذلك على معيار الذهب. فأى ضرر من معيار الفضة؟ أجابت الرجعية: الدولار الفضى فاقد النزاهة، وهو صديق الفقراء، على حين أن الذهب هو مال الأثرياء، ونقد وول ستريت. وكان برايان هو قائد الحملة ضد الذهب، والانتصار للفضة، قال: «إذا خرجوا إلى العراء يدافعون عن معيار الذهب، فسنحاربهم بعنف، ووراءنا جموع الشعب المنتج: عمالا ومزارعين، وجوابنا طلبهم لمعيار الذهب: لن تكسبوا على جبين العمل هذا التاج من الشوك، لن تصلبوا البشرية فوق صليب من ذهب».

وهكذا ظل برايان مدى عشرين عاماً تحت أضواء السياسة، بقوامه المعتدل، وشعره الفاحم وعيونه السوداء المتقدة، ولسانه المعسول، وذكائه وبسالته، بالإضافة إلى إيمانه بأن «صوت الشعب من صوت الله». ومع أنه كافح فى معركة الانتخابية وجاب أميركا طولا وعرضا مرشحا للحزب الديمقراطى، فقد فاز عليه مرشح الحزب الجمهورى وبمليون صوت. ولكن الديموقراطيين كانوا فى نهاية المطاف هم الجبهة المنتصرة التى غيرت مسار التاريخ الأمريكى.

تلك كانت حقبة الإصلاح والتقدمية، دخل حومتها السياسيون: برايان والرئيسان تيودور روزفلت وودرو ويلسن. والفلاسفة: وليم

جيمس ورويس وجون ديوى . والاقتصادى الكبير فيبلن ، والأدباء والكتاب : وليم ، وهاولز ، وفرانك نوريس وتيودور درايزر ، كلهم يدافعون عن حصون الديمقراطية ويتحدون أعداءها .

فالبلية لم تقتصر على سوء حال الزراعة والعمال ، ولا على الاقتصاديات وحدها ، بل على كل صور المجتمع الأمريكى . ولأن « عهد الحياة » فى هذا المجتمع لم يتحقق ، فقد كان المنتظر لمستعمري العالم الجديد إقامة مجتمع الحرية والمساواة للجميع ، ونجح الآباء المنشئون دون شك فى تحويل حلمهم إلى حقيقة .

وهؤلاء أحفادهم رجال تهيأت لهم الفرص لإنشاء جنة على الأرض . ألم يصف السياسى والاقتصادى والفرنسى تورجو مطالع الشعب الأمريكى بأنه « أمل الجنس البشرى » ؟ .

خاب الأمل ، وهذا على الرغم من أن الأمريكان كانوا أيسر حالا من معاصريهم الأوروبيين . بيد أن نظرة المصلحين منهم كانت : إنما نحن أسوأ مما كان المتوقع لنا نعم كانت الانجازات المادية فى الصناعة والزراعة والمناجم عظيمة ، ولكنك إذا استدرت ببصرك إلى الإنجازات الاجتماعية والثقافية ، نزل بك إلى الحضيض الذى تردت فيه .

هذه لم تكن مجرد أعمال شقية ، ولا محاولات من الأقوياء لهدم الديمقراطية فحسب ، وإنما جاء ذلك أثرًا من آثار العلم وتطبيقاته فى الصناعة التى سبقت وتقدمت خطوات على العلوم الاجتماعية وعلى الجهاز السياسى . حدث هذا فعلا عندما عجزت الدولة عن التحكم فى القوى التى أطلقتها الصناعة على المجتمع ، وكان ذلك صحيحًا فى السلوك الأخلاقى بعد ما انزاحت المسئولية الفردية أمام شركات المساهمة . وفى

الميدان الاجتماعي حالما عجزت تقاليد المجتمع الريفي المتجانس عن تطبيقها على مستلزمات حياة المدن في مجتمع غير متجانس.

والنمو ذاته أنبت مشاكل عدة، فالمزارع اتسعت وتضخمت أعمالها حتى تعدت حدودها المعهودة، والمهاجرون تجاوزوا القدرة على استيعابهم، ونمت المدن بسرعة لم تواكبها حركة الإسكان، وإنتاج المصانع أكثر من إمكانات الاستهلاك، ودنيا الأعمال تضخمت إلى حد التعجيز عن وعيها وإدارتها، وأثرى بضعة رجال ثراءً فاحشاً وضعهم في حيرة عما يصنعون بأموالهم المكدسة، ولم يجد المجتمع طريقة لتخفيف أثقالهم.

وما أقل بين المصلحين من يملك القدرة على وعي كل هذا. فلم يروا غير الجوع والظلم وضروب الفساد، ومشاكل الأرض، والعمال، والنساء والأطفال. لهذا تركز همّ المصلحين في إزالة الأحياء المكتظة بالفقراء (سلامز)، وفي تقويم الحياة السياسية، والضرب على أيدي التجمعات الاحتكارية (طراصطس)، وسوء استخدام الثروات الفادحة، وقاوموا تشغيل الغلمان، وسوء معاملة العمال في المصانع الصغيرة، ودافعوا عن الهنود الحمر باعتبارهم سكان الأرض الأصائل، وعن سود أفريقيا الذين جلبوا رقيقاً وعاشوا عبيداً للجنس الأبيض، وعن سمر الجزر في البحر الكريبي. وأداروا عجلة الإصلاح الحكومي بتنظيم الاستفتاء الشعبي، ومنح حق التصويت للنساء، وجعل الانتخابات على درجة واحدة. وانقذوا الغابات المهددة بالزوال تحت معول الإنسان، وحافظوا على مصادر المياه، وعملوا على تجميل المدن. ومن الأمور الظاهرة قيام الجمعيات الخيرية بالمئات، وانتشار الكتب التي تنعى الحال وسوء المال.

وهاجمت الصحف والمجلات شركات الاحتكار من أمثال «ستاندارد



أويل» وشركات اللحوم، وشركات المواصلات بأنواعها داخل المدن وخارجها، وكشفت عن تاريخ الثروات الضخمة وكيف تكونت. وانصرف الروائيون عن قصص الغرام، واللون المحلي إلى القصص الاجتماعية ( درايزر وفرانك تويس )، ونزل الأساتذة عن أبراجهم العاجية ليكافحوا في سبيل حل المشاكل الاجتماعية ( فيبلن ولستروارد )، واكتشف الوعاظ الدينيون المعاني الاجتماعية للإنجيل، وأثاروا ضمائر المصلين بوصف فساد المجتمع، بل وأرهبوهم بالتساؤل، عما يحدث لو نزل المسيح اليوم إلى شيكاغو.

لم يك كل غريباً على طبع الأمريكي، وهو من أقدر الشعوب على الاعتراف بأخطائه وشجب ذنوبه. لم ينس أبداً « آباء المهاجرين » ثاروا على الحيف والتعصب المذهبي، وآثروا النزوح عن وطنهم ( بريطانيا )، وأن أبناء هؤلاء في نيو إنجلاند أشعلوا نار الحرب على الدولة الأم، ولم يلقوا السلاح حتى أجبروا البريطانيين على الجلاء. وهكذا تتكون الأمم الجسور عندما تنصهر بالكفاح في الداخل والخارج، وتغدو أساء أبطال الوطنية كواكب سيارة تسطع في قبة التاريخ: جورج واشنطن، وتوماس جفرسون، وبنيامين فرنكلن والكسندر هاملتون، وصمويل آدمز، والإنجليزى نصير الحريات شرقاً وغرباً: توماس بين.

## عن التعليم والجامعات الأمريكية

« وأهم ما يعنيننا هو تعليم الشعب ، لأننى شديد الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة على قسط هام من الحرية . »

الرئيس الثالث للولايات المتحدة :

توماس جفرسون

زرت الجامعات (ومقارها تعرف فى الولايات المتحدة باسم الكامباس) : هارفارد ( كمبردج بولاية مسّاتشوستس ) ، برنستون ( بولاية نيوجيرسى ) ، يوتاه ( صولت ليك سبنى بولاية يوقاه ) ، واشنطن ( سياتيل بولاية واشنطن ) ، كاليفورنيا - بيركلى ( سان فرنسكو بولاية كاليفورنيا ) ، ومتحف أسميثونيان للعلوم ، وتاريخ المخترعات والإنجازات التكنولوجية بمصاحبة دانيال بورستن ، المؤرخ الكبير ، ومدير سابق للمتحف الشامخ بواشنطن د. ك. ، ولم يكن الوقت ليسعنى والأساتذة المضيفين بأكثر من المرور والدوران بالكامباس مع التركيز على المكتبات ، وهذه فى ضخامتها وتنسيقها ، وتبويب محتوياتها ، وقاعات المطالعة للطلبة ، وأخرى للتخصص والبحث ، وفى جمال بنائها وأثاثها وإضاءتها ، مفخرة من مفاخر الجامعات الأمريكية . وقد كان مضيفى ورائدى بجامعة يوتاه هو صديقى القديم ، وزمىلى بجامعة الإسكندرية الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، مؤرخ العصور الوسطى . قضينا نيفا وساعتين فى قسم

الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط عربية وأجنبية . ويشهد الجميع هناك بأنه منشئها ، كما تشهد صورته الزيتية الكبيرة في ردهة المكتبة . وشاهدت الملاعب ، ومساكن الطلبة العزاب والمتزوجين ، ونوادي الاجتماع ، وقاعات الدرس والمحاضرة ، وصعدت إلى أعلى البرج بجامعة كاليفورنيا بيركلي ، فأشرفت على مبانيها بعامة ، وهي مجتمعة في إنفساح تحيطها ، وتتخلل بلوكاتها الحدائق ببسطها السندسية ، وأشجارها السامقة .

كنت أتحسر على ضيق ذات اليد بجامعاتنا ، مما أدى إلى القصور في مستلزمات الحياة الاجتماعية والترفيهية لهم . وأقسى من هذا ما جرى على جامعاتنا - أيًا كانت الأسباب والعلل - من تعثر وتقهقر . ومما حزنت له نفسي مطالعة تقرير لمستول جامعي كشف لي من المصاعب التي يلاقيها بعض المبعوثين المصريين للالتحاق بكليات ومعاهد بدأت تشكك في قيمة درجاتهم الجامعية الأساسية ، وتشكو ضعفهم اللغوي ، فتفرض عليهم الاختبارات إعدادًا لقبولهم ، بعد أن كانت جامعات أوروبا وأمريكا - حتى عهد غير بعيد - تعترف رأسًا بدرجات الليسانس والبكالوريوس والماجستير ، وتسمح لمبعوثنا بالمضي في التحضير للدكتوراه .

بالولايات المتحدة ، حسب الإحصاء الرسمي عن عامي ١٩٥٦ - ١٩٥٧ : ١٨٨٦ معهداً للتعليم العالي . ومن هذا العدد ٢٢٨ معهداً يحمل اسم « جامعة » ويبدو أن ثلث هذا العدد مدارس عليا ( كوليغ ) فحسب . ويكون عدد الجامعات الجديدة بهذا الاسم ١٥٠ جامعة . ويصرف على مجموع معاهد التعليم العالي في سنة الإحصاء حوالي ٢ مليار ونصف دولار ( ٢,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ) لا تدخل فيها تكاليف امتداد المباني ، ولا التكاليف غير التعليمية . وميزانية جامعة تشيكاجو وحدها حوالي ٥٠ مليون دولار .

وأغنى مكاتب الجامعات : هارفارد : ٦ ملايين مجلد وييل : ٥ ملايين مجلد .  
ولقد أتصور وأنا أنقل هذه الإحصاءات أنني أصبت بعدوى الأرقام في  
أمريكا ، علماً بأن الأرقام لا توصلنا إلى شيء هام . والهام في موضوعنا هو  
قصة التعليم بأنواعه منذ بدء تكوين الأمة الأمريكية ، وهذه أعجوبة من  
أعاجيب هذا الشعب الحديث ، الذي بدأ خطاه الحضارية منذ قرنين من  
الزمان ، بدأ من العدم فوق أرض شاسعة بغاباتها وآجامها وصحاريها  
وجبالها وأنهارها وبحيراتها . أرض كانت تسكنها قبائل بدائية رحل ،  
استطاع المهاجرون الأوائل ، ومن لحق بهم من مختلف الأمم أن يقيموا أمة  
موحدة فيدراليا لم تحقق أجناسها ومللها ونحلها المضي في تحقيقها . وفي  
المركب الصعب لم يتوقف التقدم الحضارى الذى أبلغها أسمى المراتب ،  
وجعل منها الدولة الزراعية الصناعية ، والعلمية الأدبية الفنية ، في وقت  
قصير بحساب الأمم .

ونبدى هنا ملحوظة - ليست من محض تفكيرنا - وهى أن دولاً حديثة  
كالبرتغال والنرويج ، أو ألمانيا أو إيطاليا ، تكونت الأمة فيها قبل الدولة  
بالمعنى الحديث . أما تكوين الولايات المتحدة فقد بدأ بالدولة قبل الأمة .  
وهذه واحدة من غرائب استعمار العالم الجديد . فقد تبلورت أمريكا  
إدارياً وسياسياً قبل أن تحقق وتحصل العناصر التقليدية لبناء القومية .  
فالقومية لا تكتمل إلا حين يجمعها تاريخ مشترك ، وشعر ، وأغان ،  
وقصص وأساطير .

في البدء كان التعليم ، وهو موضوعنا . قال توماس جفرسون الرئيس  
الثالث في التاريخ الأمريكى : « وأهم ما يعيننا هو تعليم الشعب ، لأننى  
قوى الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة



على قسط هام من الحرية». وأكد جون أدامز الرئيس الثاني «١٧٩٧ - ١٨٠١» ضرورة «تربية كافة الطبقات حتى أحاطها وأكثرها عوزًا». بل كان جميع حكام الولايات على قدر كبير من إرادة التبصير بأهمية التعليم. كان حاكم نيويورك مثلاً هو منشئ جامعة نيويورك، وحاكم بنسلفانيا عني بإنشاء مدارس البنات، ومدرسة طبية. واعتنى نوح وبستر (صاحب القاموس الأمريكي الأول) بالتعليم العام، ألف كتب المطالعة والتاريخ ووضع القواميس. والرئيس جفرسون في الحق كان أهم شخصية من بين «الآباء المنشئين» عناية بالتعليم بدأ بإنشاء مدارس التعليم العام لكل أطفال الولاية وهو مؤسس جامعة فرجينيا، ومكتبة الكونجرس بواشنطن - د. ك. أضخم وأغنى مكتبات العالم.

كانت هارفارد، وبرنستون، ووليام وماري أقرب إلى الأكاديميات منها إلى الجامعات، ولكن هذا لا ينسينا أنها خرجت جنرسون، وجون آدمز، وماديسون (الرئيس الرابع (١٨٠٩ - ١٨١٧)).

التعليم العام لم يدخل في دور التطور إلا في ثلاثينات القرن الماضي، حين اهتم الحكام بدعوة خبراء التعليم من سويسرا وألمانيا. وكان في مقدمة الأمريكان عناية بالتعليم العام هو «هوراس مان» من ولاية ماساتشوستس عين مديراً للتعليم سنة ١٨٣٧، وكان أول من أنشأ مدارس للمعلمين، ووضع تقاريره السنوية تفلسف مكانة هذا التعليم ووظيفته في الديمقراطية. قال بأن التعليم يجب أن يكون عملية ديناميكية، والتلميذ يتعلم بالرؤية والملاحظة والأداء، أكثر مما يتعلم بالحفظ (ونتبين من هذا بلاغة كلمة «الضَّم») والمعلم رائد وصديق، لا مجرد عميل تعليم. والطفل له حياته الخاصة وعالمه ينمو عقلياً تبعاً لسرعة استيعابه، وأهمية الرياضة

البدنية تتساوى تربوياً مع الكتب . واضح أن تلك آراء جان جاك روسو ،  
نفذها عملياً بستانلوتسى فى سويسرا ، وفرويل فى ألمانيا . وهب الأمريكان  
لتنفيذها .

ومدارس المراحل الأولى نمت من تسع مدارس فى عصر التبعية  
البريطانية ، إلى أكثر من عشرين فى مطالع القرن الماضى ، وواصلت النمو  
والازدياد . ولكن أغلبها كانت فقيرة فى مصادر تمويلها ، وفى مكتباتها .  
الواضح فى مدرسيها إن إخلاصهم لواجبهم يسبق قدراتهم التربوية .  
والبرامج تعنى أول ما تعنى بالأخلاق والتربية القومية التى تعمل على  
شحن الإحساس بالمسئولية الاجتماعية والوطنية .

تقدم التعليم العالى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى  
اتجاهات ثلاثة :

أولها : نمو الجامعات التى تنشئها وتتولى أمورها حكومات الولايات ،  
وكان ذلك أكثر ظهوراً فى ولايات الغرب ، وخاصة فى أوهايو وميتشيجان .

وثانيها : الاهتمام بإنشاء المدارس العليا للبنات .

وثالثها : التحلل من قيد نظام الكليات الأربع ، أساس الجامعات  
الأوروبية التقليدية ( كليات الآداب والعلوم والقانون والطب ) . لأن اتجاه  
شعب الولايات المتحدة كان من أول أمره ، واستمر فى التركيز على  
متطلبات الديمقراطية الجديدة بإنشاء المعاهد الزراعية والهندسية « وبلغ  
التحلل ذروته عام ١٨٦٢ عندما قررت الحكومة الفيدرالية ( أى المركزية )  
أن تقطع الولايات الأرض اللازمة لإنشاء معاهد عليا للزراعة والهندسة .  
يجب لفهم مقاصد التربية والتعليم فى الجمهورية الجديدة التنبيه إلى أن  
« الآباء المنشئين » كانوا مؤمنين بأنه لا نجاح للديموقراطية ، ولا حياة

للحرية، بدون نشر التربية والتعليم على أوسع نطاق. فماذا يرجى من الانتخاب العام إذا كانت أغلبية الناخبين لا تفقه معنى الحياة الديمقراطية، بله قواعدها.

## دعوة مستجابة فيما أرجو فصل انتقالي ( ١٩٧٧ )

تقدرون وتضحك الأقدار. كنا نعد لقضاء  
أسبوعين حول «شم النسيم» بالإسكندرية ،  
فإذا بي أتلقى إشارة من الأستاذ عبد المنعم  
الصاوي ، وزير الثقافة والإعلام ، تدعوني إلى  
حضور افتتاح معرض توت عنخ آمون بمدينة  
شيكاغو، تلبية لدعوة جامعتها القائمة مع  
هيئات أخرى بتنظيم هذا الحدث الفني الكبير،  
في أعظم مدائن الولايات المتحدة بعد نيويورك.  
أنعم وأكرم بالدعوة، وفجائيتها. أثارت في  
مخبات نفسي «دعوة إلى الرحيل» للشاعر  
الفرنسي بودلير لحنها الموسيقى دوبارك:  
«يا بنيتي، ياأختي: احلمي بحلاوة الحياة هناك  
سويًا، بالبلاد التي هي صورة منك:  
«هناك الترتيب، والترف والجمال، وهناك  
الهدوء، ومباهج الحياة».

تغلبت شيكاغو، ونيو أورلينز، ونيويورك على الإسكندرية، فمن  
الطابق السادس في هذه الأخيرة إلى الطابق الثالث والعشرين بفندق  
«ريتز - كارلتون» ومن عروس بحرنا، إلى عروس بحيرة ميتشجان، ثم  
إلى دلتا المسيسيبي.



عدت بعد رحلة الأسبوعين مليئاً بانفعالات الفن، فن جدودنا الأقدمين، وانفعالات التجدد رؤية واتصالاً بكرام الداعين. تذكرت كل هذا لأسجله على هذه الصفحات، ولكننا في شهر مايو من سنة ١٩٧٧، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الإذاعي الثاني» وللقدر أياك حانية، فقد أعادني إلى صديق العمر توفيق الحكيم لمواساته فيما حل به من رحيل رفيقة حياته الغالية.

نسيت تماماً في أحزاني، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الثاني» (١٩٥٧ - ١٩٧٧) العمل الجماعي الصامد للأهواء والأعاصير. فقد ولد متهاً بأنه «جمعية المنتفعين» أي والله، وعاش فقيراً إلى ربه الرحمن الرحيم. تحمل في صبر وإيمان أن يوصف ببرنامج النصف في المائة. أنعم وأكرم يا سيدي بهذا النصف في المائة الذي يحصى عدد آلافه بنحو عشرين ألف مستمع لا غير من أجل العاصمة وأرباضها، والبلاد القريبة، لا يسمع في الدلتا ولا في الصعيد، ولا في الإسكندرية، العاصمة الثانية مهضومة الحقوق، وإذا سمع فلما، مع مقاومة صغير عارم أنزله الشيطان من بين شواظ غضبه.

وإذا بالسيدة الأربية، فوزية المولد رئيسة البرنامج الثاني تدعوني في التاسع من هذا الشهر إلى المشاركة في حفل أسرة ذلك البرنامج الشاب. ولقد جلسنا صباح يومى هذا (العاشر من مايو) عشرة أشخاص حول الميكروفون أو تحت مظليته، نستمع إلى ثلاثة رؤساء البرنامج الثاني: سعد لبيب، فؤاد كامل عبد العزيز، فوزية المولد تتحدث إلينا عن تلك الظاهرة العجيبة في إذاعتنا: الباب المفتوح لكل أبواب الثقافة. وقد نعى الأستاذ يحيى حقى خطأ وصف الثقافة بالرفيعة شعاراً لمجلة

«المجلة». ووافقته تماماً على أن الثقافة ظاهرة حضارية ترتفع بإنسانية الإنسان عن كل أثر لبهيميته. وإذا كنا قد أخطأنا في وصف المرحومة مجلتنا، بل خريدتنا العذراء التي قضت في شبابها مقصوفة الرقبة، فقد عادت وزارة الثقافة إلى وصف جديد للثقافة، فهي «الجماهيرية»، في معنى الهبوط بها إلى مصاف الجماهير. وليست ثقافة بأية حال تلك التي تنزل إلى الجماهير، لأنها لا تعرف غير مهمة واحدة؟ «الارتفاع بالجماهير». وبهذا تكون «الثقافة الجماهيرية» تلك «بديل ثقافة»، «إرذاتس».

وهذه قائمة بأسماء العشرة الكرام الذين أضاءوا شعلة العام الأول بعد العشرين لبرنامجنا الثقافي «الحيلة»: الأساتذة الأجلاء: الدكتور زكي نجيب محمود، والدكتورة سهير القلماوى، ويحيى حقى، وعبد الحميد الحديدى، الضيوف والأصدقاء الحميمون للمحتفى بعامه العشرين.

ثم إليك قائمة بأسماء الجيل الثانى من أبطاله العاملين: السيدة عفاف المولد، مراقبة العلوم. والسيدة عفاف حسين، مراقبة الموسيقى، والسادة: الشريف خاطر للدراما، ومحمد على الشرقاوى للبرامج الخاصة، وشوقى فهم للفنون، وكمال حمدى للآداب (كبير المذيعين).

ولقد أبدى الجميع أسفهم لغياب الأستاذ الكبير فتحى رضوان، أول وزير للإرشاد القومى، عاد إلى تلك الوزارة، فلم يغادرها إلا وقد تحولت إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى. وغياب الروائى المبدع الأستاذ نجيب محفوظ.

إذ يبدو أن خصاماً قائماً بين تليفونات مصر الجديدة والعجوزة، وبين تليفونات الجيزة، ودار الإذاعة والتليفزيون. فقد فشلت محاولات من

الجيزة، ومحاولات السيدة فوزية المولد من مكتبها بالدور السادس .  
 وضع من نقاش الحاضرين ، في الندوة الاحتفالية . أن إنشاء البرنامج  
 الثانى عمل جماعى يعتبر نموذجاً يحتذى . لم يكن نزوة ، ولا مجرد خاطر  
 طارئ ، بل كان إنجازاً اجتمعت له عناصر النجاح . فقد تحول الوزير  
 فتحى رضوان من فكرة « الدعاية » متخفية باسم « الإرشاد » إلى فكرة  
 الثقافة ، حين قرر إنشاء « مصلحة الفنون » واسند رياستها إلى الأستاذ  
 يحيى حقى يعاونه الأستاذ نجيب محفوظ ، والمرحوم عبد الرحمن صدقى .

كانت الفكرة موضوع لقائنا . فهو لقاء طبيعى وأصيل ، لأننا كنا فى  
 مجموعنا لا نكره شيئاً كرهنا لدعاية الطبل الأجوف ، بدق وحده  
 كالمجنون .

بينما مجموع الفكر والفن والعلم والأدب ، ممارسة وعملا ، خلقاً ونقداً ،  
 هو الذى يدعو لأهله وبلاده الجديرة بتاريخها التالد ، وتطورها الطريف .  
 ثم كانت واقعة تأميم قناة السويس ، وعودتها إلى أهلها انتصاراً باهراً  
 على غلاة الاستعمار البائد الكريه .

وليكون معنى الثقافة « واضحاً للأفهام ، خالصاً مميّزاً عن السياسة »  
 نعرف بأن نموذج « البرنامج الثانى » كان « البرنامج الثالث » فى بريطانيا ،  
 إحدى الدول التى شاركت فى الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦ . لأن شئون  
 الفكر والفن والعلم والأدب أرفع من أن يتأهلها نعى الناعين . فإن كان  
 المستمر إيدن ، والمسيوجى موليه يمثلان « السياسة » ، فإن أهل الثقافة فى  
 البلدين العظيمين كثر ، انحازوا إلى جانب الحق والعدل ، بل وجد حتى فى  
 ميدان السياسة عظماء من الشرق ، ومن أقصى الغرب نعوا على الدولتين  
 الكبيرتين الشطط والبجاجة . فأعادوا الحق إلى نصابه .

لا عجب إذن أن يجيء عطاء ١٩٥٦ - ١٩٥٧ بتأسيس الفن الشعبى وتصنيفه وإعادة المسرح المصرى سيرته الأولى، وإنشاء الأوركسترا السمفونى والكورال، والشروع فى الإعداد لأكاديمية الفنون بمعاهدها الخمسة. وكان عام ١٩٥٧ إلى هذا هو عام «المجلة» وعام «البرنامج الثانى» ظهيراً، وداعية إلى الإتقان والتعميق والجودة وقد قيض لهذين العاملين العظيمين، من الوسط الإذاعى والأوساط الأدبية والفنية والعلمية أهله، وضيوفه، أن أقيما صرحاً لحرية الفكر بأصدق معانيها.

فإذا كنا نحتفل بمضى عشرين عاماً على إنشاء «البرنامج الثانى» فإننا نود التذكير بأن ثورة ٥٢ بلغت فى ذلك التاريخ ذروتها. وإذا بلغ العمل الاجتماعى الذروة فليس أمامه إلا طريق السلامة فى الاحتفاظ بمستواه، أو طريق «الصدامة» بالنكسة والنكوص.

والتاريخ وحده سوف يؤكد لنا معنى ليس جديداً فى تاريخنا منذ العتاقة. وهو قدرة هذا البلد ومقدراته، فى النهوض من العثار والكبوة عندما يضل الطريق، فيهبى بنا إلى حضيض اليأس. وها نحن نحتفل اليوم وغداً وما بعد الغد بثورة ١٥ مايو ١٩٧١ تصحيحاً لمسار ثورة ١٩٥٢. وأحسبني لا أغالى إذ أرانا مرة أخرى فى الطريق الذى أخرج منذ عشرين عاماً تلك المنشآت الغالية، وحتى إن كانت تلك الأعمال قد تمت فى فترة لم تتمتع بكامل الحرية، فمن باب أولى يحق لى تصور نهضة اليوم، عندما تغدق علينا شمس الحرية بكامل أشعتها، ويجلو كابوس الاحتلال عن صدورنا، وأرضنا، تعنى استئناف السير بمصر فى مدارج حضارة بدأتها فى النصف الثانى من القرن الماضى، واستأنفتها بعد ثورة ١٩١٩، ثم نفضت عنها فى ثورة ١٩٥٢ الملك العابث، وعرشه المتهاوى. وحققت ثورة



التصحيح في مايو ١٩٧١ القضاء على الطواغيت المخربة، وبهذا تحقق العبور من ظلام الهزيمة إلى نور النصر في أكتوبر - ١٠ رمضان المجيد. الحق أني أكتب هذا المقال دعوة للقراء أن يستمعوا إلى « البرنامج الثاني » في الندوة التي سجلتها المجموعة الصادرة في يوم ١٠ مايو، احتفالاً بعيدة العشرين وسيدرك من لم يتمرسوا طوال هذه السنين بطريقته وخط سيره، أن البرنامج الثاني قمين بأن يسمى « مجمع الثقافة ».

فما أكثر ما سأل السائلون عن معنى « الثقافة » وكنت أنهي إجابتي بأن « البرنامج الثاني » هو التعريف العملي بالثقافة، وذلك بعد أن أوضح للسائلين أن الثقافة ليست علماً ولا تخصصاً، ولا حرفة. فلكل إنسان دوره في الحياة، أيًا كان هذا الدور، ومهنته أيًا كانت تلك المهنة. إنما الثقافة هي إدراك أعلى لعلاقات المعارف العامة بعضها ببعض، عن بعد أو قرب. وتحقيقها يحىء نتيجة تفتح الذهن إلى هذا الإدراك، وذلك بمتابعة الاطلاع والوعى بكافة ما يوصف في حياة الإنسان باللاماديات. فالتكنولوجيا مادة، ولكن إدراك أصولها عن طريق العلم البحث يخرج بها عن المادية، إلى مجال الفكر الخالص.

وإنها لفرصة ثمينة لمن يتابع البرنامج الثاني ساعة أو بعض ساعة كل ليلة ( وهأنذا أنسخ هذا المقال على صوت « غادة السمان » تناقش موضوع الأدب النسائي، فأوقف الكتابة لأستمع إلى جرسها اللطيف )، أن يجتمع له في صعيد واحد، وبث موجة إذاعية متواضعة، أشتات من المعرفة في الاقتصاد، أو التاريخ، ومن الفن إلى الأدب القصصي الطويل والقصير، والأدب التمثيلي، والموسيقى، والنحت والتصوير، وقد يسأل سائل هنا: وما شأن إذاعة مسموعة بفن مرثي: فأجيبه: أستمع إلى ندوة الفنون

التشكيلية - وكانت حتى سفرى إلى أمريكا تقام فى ليل الجمعة ، وسترى أن أهل المهنة يجتمعون فيها ليناقشوا ففهم الذى تراه معروضاً فى زمان أو مكان قريب منك إن كنت فى القاهرة ، أو الإسكندرية . ولو أن قدرات البرنامج الثانى المادية أقوى مما هى عليه لاستطاع العاملون فيه أن يتابعوا نشاط الأقاليم الثقافى ، بما يحىى مواتها ، ويشجع فنانيتها وكتابتها . والفنانون التشكيليون فى ندوتهم الأسبوعية لا يعلنون عن ففهم ، ولا هم يقومون بدور تعليمى أو تربوى . إنما هم يمشون فى حوار بلغة المهنة ، خلقتها تجربتهم الحية . وبذلك تحس إحساساً أمضى وأقوى من استماعك إلى من يحاضر ك مباشرة بلغة مفتعلة فى أناقتها .

ثم من لى بذلك المستمع المستديم للبرنامج الثانى فى ليل الثلاثاء ، وقد عرف عن طريقه أدب المسرح عند القدماء والمحدثين ، شرقاً وغرباً . وكلما اتسعت ميزانية البرنامج ، وتقوت موجته ، ( وحبذا أن تنال قسطاً من الأمواج القصيرة التى تضع فى فىافى أفريقيا ) ، استطاع أن يتوسع فى مواده الأخبارية خاصة بالعلم والفن والأدب والاقتصاد والتاريخ .

واختم بتكرار رجائى إلى القارئ أن يستمع إلى ما سجلته الندوة الاحتفالية ببلوغ البرنامج الثانى سن العشرين . إنه يفتح لك باباً واسعاً ، وطريقاً واضح السمات ، إلى الثقافة معنى ومبنى .

## وادی الملوك علی ضفاف متشیجان

كنت أتهياً في الصباح الباكر لكتابة رحلتی  
الثانية إلى الولايات المتحدة، مدعوًا إلى حفلات  
افتتاح معرض توت عنخ أمون بمدينة شيكاغو  
على ضفاف بحيرة متشیجان، وإذا بمقال  
يعترضني في صحيفة الأخبار يتحدث عن  
الآباطیل، وعن الديمقراطية المنتهية إلى غوغائية  
فوضوية.

إلى أين يسوقنا هؤلاء الأذكياء الذين تلقوا  
العلم أصدقه وأكرمه، وعرفوا طريقه السوي إلى  
المعرفة، وأدركوا أن العقل هو الجوهر الفرد الذي  
وهبه لآدم وحواء، الخالق عز وجل «علم آدم  
الأسماء، وعلم الإنسان ما لم يعلم، بل أمر  
الإنسان بطلب العلم «وقل رب زدني علماً»  
والعلم وسائله الحواس والاستقراء، والتحليل  
العقلي، كما أن وسائله التلقى بالقلب،  
والاستمداد من الله: فالله هو المستمد النهائي  
لجميع الحقائق، وذلك هو العلم اللدني  
الإشراقي. ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم  
والتقوى، ويمكن أن أضيف إلى كلام الدكتور  
مصطفى محمود صاحب هذا الكلام: إن العلم  
الصادق هو التقوى. والعلم الكاذب لا وجود

له، لأن اسمه، ووصفه بحق هو التدجيل،  
والقنزحة، والتدليس.

ولقد كنت أحسب أن كلام الدكتور محمود  
لا يؤدي إلى التعارض بين ما يتطلبه للمواطن  
الصالح، وبين ما تقتضيه من هذا المواطن لبلده  
الناهض. فهل من بأس وعثرة في الطريق!.  
الأس كل الأس في أن يقلب الكاتب هذه  
الحقائق السامية، وهي هدف العلم الذي نسعى  
إليه جميعاً، ويسعى إلى توصيفها بما يجعلها في  
رأيه كفرةً وإلحاداً.

وهذا مصدر الخطر في إشاعة الشك  
والاختلاط الذهني، والخيال بين الشباب الذي  
يرد العلم السليم: قليلاً منه أو كثيراً، عندما  
يتلقى بقلب واجف عزاءً على أيدي أولئك  
(الصالح) المصلحين: بآية من هنا: وحديث من  
هناك!.

لن أناقش الكاتب العلامة صاحب القلم  
الفياض، وسيد الاستدلال والتحصيل العقلائي،  
متحدداً في روحه الصافية مع العلم اللدن  
الإشراقي. فإن إعجابي بانفساح عقله، وقوة  
حجته، يشعرنى بالعجز عن مواجهته، وقد  
تلقيت من مقاله في (الأخبار) بعنوان  
(لا تعلموا شبابنا الأباطيل) صدمة عنيفة يجب  
أن أخلص منها، قبل استئناف ما أنا بسبيله في  
هذا الفصل.

## عودة إلى العالم الجديد

إن معرفتي بحقائق الولايات المتحدة الواسعة علماً وعملاً، جاءت متأخرة جداً. إذ كانت رحلتي الأولى إليها بعد أن اجتزت سبعين عاماً من عمرى. وشاءت الصدفة أن أعود من تلك الرحلة شديد الإعجاب بما أدت تلك البلاد وتؤدى للحضارة ومقوماتها فى مدى مائتى عام من حياة بدأتها بالأباء المهاجرين وقاية لأنفسهم من اضطهاد دينى فى بلادهم. نزلوا فى أجمة وإحراج، قاموا بإصلاحها وزراعتها ما استطاعوا، وأخفقت زراعتهم فى العام الأول ومات منهم من العجزة والأطفال كثير. ولكنهم انتهوا هم وأحفاد أحفادهم من بعدهم، والمهاجرون إلى العالم الجديد من العالم القديم، فى قرنين من الزمان بالوقوف فى صدارة العالم علماً وعملاً، ودفاعاً عن الديمقراطية، وبعداً بها عن مغامرات طلاب الحكم الشمولى، وقد عرف الناس من قبل ومن بعد مصير الدكتاتوريات وزعمائها الأوحدين، وما نزل بشعوبهم من ظلم واعتداء وضياع وخراب. أتاحت لى رحلتي الثانية تأكيد هذا الإعجاب عندما شاهدت الاهتمام الإنسانى العميق بمعرض توت عنخ آمون، الذى أقيم فى واشنطن، ونيويورك، وشيكاجو وسيفتح فى غيرها من مدائن الديمقراطية الأمريكية، رمزاً لصداقة عادت لصفاتها بيننا وبين أهل تلك البلاد، واشتراكاً منا فى الاحتفالات بمضى مائتى عام على ثورة الولايات المتحدة فى وجه المستعمر، وإعلان الاستقلال، ووضع دستورها القائم بنصه إلى اليوم، مصحوباً بإضافات وتعديلات ألحقت به منذ حياته الأولى.



وفي ظني أن زوار الأقصر ملمون بأمر البيت العتيد القائم على الضفة، المعروف « شيكاجو هاوس » وهو امتداد مصرى لمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاجو، ثانية المدن الكبرى الأمريكية.

والكثير منا يعرف مؤلفات العلامة الأثرى والمؤرخ جيمس بريستد، كما عرف الشباب، والتفوا بتلميذه الكبير، العلامة الدكتور جون ويلسن، وطالعوا بعض كتبه، أو ترجمتها العربية ( للمرحوم الدكتور فخري ). وتحدثت هنا مؤخرًا، تأبينًا له، وقد رحل هنا في أوائل هذا العام.

كان الاثنان من أهل شيكاجو، كبرى مدن ولاية إلينوى. بل كان أولهم واضع اسم أمريكا ضمن الشعوب المتنورة التي عنيت بحضارة المصريين القدامى. وعمل كلاهما أستاذًا في جامعة مدينتها، وتعرفنا عليها في مصر، وأشارت في بعض مقالاتي وفي كتاب من كتبي إلى أثر بريستد على تكويني الثقافي.

حرصت جامعة شيكاجو، بالاشتراك مع من أعانوا في إقامة المعرض، على دعوة أربعة من المصريين لحضور افتتاح معرض توت عنخ آمون، واختارت وزارة الثقافة الضيوف الأربعة: الأثرى المؤرخ النابغة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، والأثرى النابه الدكتور على محمد حسن، والأستاذ العلامة الدكتور مجدى مراد وهبة، وكاتب هذه السطور.

وأتاح لي زيارة شيكاجو، وجامعتها، ومعرض الملك توت « كما يسميه أهل المدينة اثناسًا به » ثم زيارة نيواورليان « نواورلينز في لغتهم » التي تستعد لإقامة المعرض ذاته في سبتمبر القادم، أن اطلع على أسلوب إعداد الأهلين بالمحاضرات، والمذكرات، والنشرات المصورة لأشهر قبل

حلول يوم الافتتاح ، وفي خلاله . وهأنذا أنزل إلى عروس دلتا الميسيبى فى إبريل لأجد متحفها للفنون الجميلة يتأهب للمعرض قبل افتتاحه بأربعة أشهر . والتقيت بالسيدات والآنسات المتطوعات منكبات فى المساعدة بكل ما يطلب منهن . والمدينة الساحرة تستعير بعض الآثار المصرية من متحف بوسطن ، لتقيم معرضاً صغيراً يزوره طلاب المدارس بصحبة معلمهم ومعلماتهم ليتعرفوا عملياً على حضارة مصر القديمة التى يدرسونها فى كتبهم ، حتى فى المراحل الابتدائية .

احتفل بافتتاح معرض شيكاغو فى ثلاثة أيام : للرسميين وعلية القوم ، ورجال العلم والأدب والفن ، وإذا بالساحة الفسيحة أمام بناء متحف التاريخ الطبيعى ، تحشد فى اليوم الثالث بأهل المدينة والوافدين عليها يقبلون على الزيارة ، ويصعدون الدرج الواسع لينتظروا فى ترتيبهم فتح الباب ، والولوج إلى قاعات التاريخ الطبيعى حيث يمكنهم تسليّة انتظار دورهم للسماح لهم بالدخول طوفاً إثر طوف ، إلى القاعات التى استقبلت آثار الملك الشاب ، يشاهدونها فى هدوء ، دون عجلة أو تلبث .

وأشهد لمن قاموا بعرض كنوز توت عنخ آمون فى شيكاغو ، بأنهم جمعوا بين العلم والتجربة والذوق الفنى ، مدركين أهمية إمداد المعارضات بالشروح المكتوبة ، بل والمسموعة من خلال ساعات تأخذ بيد الزائر من فاترينة ، إلى نصب وتحاضره عن محتوياتها بمأثور الكلام .

وكانت جامعة شيكاغو فى مقرها - ولها متحف جامع لعدد من الآثار الهامة للعالم القديم ومصر فى مقدمته - قد أعدت معرضاً إضافياً إلى معرض توت عنخ آمون ، ودعت كبار الأثريين والمؤرخين من العالمين القديم والجديد لسلسلة محاضرات عن آثار مصر بدأت قبل افتتاح المعرض

الكبير بأشهر، وهى متواصلة فى خلال إقامته، وقد قبض لى أن أحضر محاضرة أستاذ الآثار بجامعة لندن يحاضرنا عن الاكتشاف الجديد بسقارة، وهو معبد جنازى لهورن محب، غير المدفون هناك. فقد تولى الملك كآخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ودفن فى وادى الملوك.

ولقد عشت طالباً فى عصر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان حدثاً علمياً، ومصدر غضبات مصرية من كبار الإنجليز الذين لم يسمح لهم بزيارة المقبرة، وغضبة مصرية من حكومة البلاد، حتى زار الاكتشاف الملك فؤاد. وغضبة ساخرة من المستر «خالف تعرف»، وهو الكاتب الذى لا حاجة له إلى السلوك الدعائى، فهو أشهر من «علم فى رأسه نار» نادى برناردشو بأن فن توت عنخ آمون يتسم بالسوقية التى تلعلط فى إبريزة وهاجة وفيروزة، مثل غنية الحرب التى تتحلى بما يحولها إلى فترينة صائغ، وأضاف شو إلى هذا تنديده بهبوط الذوق العام فى العالم، مستنداً إلى الاهتمام الطفولى بتلك الشخايل.

وانتهى الأمر بغضبة فرعونية على ممول الحفائر التى نبشت قبر الفرعون الصغير - فيما يرى مخرفو العالم - حين مات اللورد كارنارفون بلدغ بعوضة تظن بالهيوغلىنى. وحمل جثمان اللورد، بليل، إلى مدرسة الطب المصرية، حيث أخفاها أستاذنا «ديرى» فى مشرحته الخاصة الملحقة بمكتبه، وحمل المفاتيح. وحاولنا رؤية ما بداخلها من ثقب الباب، فلم نر غير جثمان ملفوف.

اقتصرت معرفتى بكنوز توت عنخ آمون فى مطالع العشرينات بقراءة ما كان ينشر عنها، ومشاهدة صور أكثرها فى مجلة لندنية مصورة، ربما كانت «الجغرافيك» أو (الاستريند لندن نيوز) وسافرت بعد ذلك عضواً بالبعثة إلى باريس.

وعندما عدت من البعثة إلى مصر، هرولت إلى المتحف المصرى لأرى الآثار التى أثارت تلك الضجة. وأمام بهو العرض بالدور العلوى تهكمت فى نفسى على برناردشو، وما دمع به كتوز الملك توت. لأننا فى الحق إذا أغضبنا عن بذخها، اكتشفنا صورة جد صادقة، نموذجاً لحضارة لامعة. هذا عاد إلى ذاكرتى وأنا أشهد جماهير شيكاجو تدخل طففاً، وتفغر أفواهها، دهشة شعب عمره مائتا عام من آثار حضارة ألفية فى وادى العجائب بصعيد مصر. وكان أهم مألفت نظرى - مادمت أعرف كل القطع المعروضة - عناية العارضين بوضع صور فوتوغرافية مكبرة بطول وغرض الحيطان، لداخل المقبرة، وتابوت الملك وناووسه، وغرفة الكنز بكراكيبها الغالية فى الوضع الذى وجدت به. وهى الصورة التى نشر بعضها مكتشف المقبرة هوارد كارتير فى كتابه يؤرخ للبحث والتنقيب والاكتشاف الهام لمقبرة لم تمسها يد اللصوص فى الأغلب، إلا مرة واحدة فى العصر القديم.

وأحب أن استعيد ذكرى زيارتنا لعالم الآثار المصرية، هيوز، وهو فى سرير المرض بمستشفى الجامعة. صاحب الفضل الكبير فى مطالعة النصوص الديموطيقية، وقد ظل مديراً. «بيت شيكاجو» الأقصر سنين طوالاً، وتعلمذ عليه الجيل الحاضر من شباب الأثريين الأمريكان. وتمنينا له الشفاء العاجل.

وعلى الرغم من أيامنا السعيدة جداً بما لاقيناه جميعاً من حفاوة بتاريخنا الأجد فى الجامعة الكبيرة، ولدى أهل المدينة الساحرة التى خرج منها معماريو «ناطحات السحاب» الأوائل، فكانت عمائرهم الوحيدة التى يبهرك مظهرها، دون أن يؤذى إحساسك الفنى، ذلك لأن تلك الناطحات

على شاطئ بحيرة متشيجان لا تمثل النشاط المعماري الذي تظهر به في نيويورك، أقول على الرغم من سعادتي، كان شعوري العام عند خلوتي بنفسى مشوباً بحزن كظيم، وهو قياس ما أراه في تلك البلاد التي يبهرك ثراؤها، ونشاطها المحموم، ونظامها - هذه البلاد عندى أقوى البلاد قدرة على استخدام الثروة، بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر، ثم رد بعض هذا الإثراء للنفع العام - أقول: قياس ذلك بما حدث في مصر، التي كانت في طريقها السليم إلى الحضارة العالمية بحق مساهمتها التاريخية فيها ثلاث مرات، من اختلاط الأمور عليها في هذا النصف الثاني من القرن العشرين، وتشتيت شبابها بشتى الادعاءات والدعوات والدعايات.

وكان هذا الأصل فيما جاء بصدر المقال.



## مدينة لها تاريخ في صنف من الموسيقى

لو أنى من هواة «الراجتايم والجاز، والبلوز، والسوينج، واليوجى - ووجى» لكان التفسير مقبولا أن يقع اختياري على مدينة أورليان الجديدة (نيواورلينز)، ميناء ولاية لويزيانا (عاصمتها باتون روج)، وولايات الجنوب الشرقى. أييم شطرها بعد انتهاء ضيافة جامعة شيكاغو لنا.

وفرّق بين أن تكلف بهذه الموسيقى الذائعة الصيت في أركان الدنيا، وبين أن يدفعك حب الاستطلاع إلى الإحاطة بمصادرها، وبسرّ جاذبيتها، ولشباب العالم خاصة، من البنين والبنات، حتى في بلادنا التي تعشق مطربها، ألا كم سمعت الآباء هنا، وفي الخارج، من عشاق الموسيقى الكلاسيك، يتعجبون من تعلق أولادهم بتلك الموسيقى الصاخبة المحمومة، دون غيرها.

ولعل شبابنا يعلم بأن منبت موسيقى «الجاز» هو مدينة أورليان الجديدة. وهذه قصة طويلة أرجو أن أوفق في سردها بإيجاز، لا سيما وأن سرانجذابي إلى مدينة الجنوب الشرقى الأمريكى، الواقعة على خط ٣٠ درجة شمال خط الاستواء، أى على خط العرض نفسه الذى تقع عليه القاهرة، هو من بقايا الرومانتيكية التي لم أنجح تماماً في حبسها بقمقم: فقد كانت لويزيانا مستعمرة فرنسية، أهلها يعرفون «بالكربول»، إذ كانوا فرنسيين خلصاً، ولدوا بمستعمرات العالم الجديد الاستوائية، باعها نابليون القنصل الأول لجمهورية فرنسا عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة.

وأذكر يوم نزلت بمدارس في الهند ضيفاً على زميلي مدير مباحث الأسماك، عام ١٩٣٤ زوجته الإنجليزية أننى كنت هناك على مقربة من مستعمرة فرنسية بالهند اسمها «يوندشيري»، فأستأذنت مضيفي أن أفرك كعبي إليها، فقام العلامة الهندي (وقرينته من أصل تبشيري)، في وجهي رافضين قسراً بأن أقوم بهذه الزيارة. وفهمت من تزمتهما أن «يوندشيري» كالفراغ والجدة، فلم أشاهد المستعمرة الفرنسية، حماية لى من «مفسدة المرء أى مفسدة»!!.

«موسيقى الجاز» تحظى في أصلها وفصلها بتعبير الشعب الأسمر عن حنينه إلى وطنه النائي في أواسط أفريقيا، غاباتها وأدغالها، وقد اختطف أفرادها خطأً بواسطة النخاسة، وأرسلوا قيد الأصفاد والسلاسل، في قاع سفن إنجليزية أو هولندية لبيعوا عبيداً، يعملون في حقول ولايات الجنوب. ومن أوائل الكتب الإنجليزية التي قرأت في مراهقتي كتاب مسز بيتشر - ستو «كوخ العم توم». كما أن مارك توين من أحب الكتاب الأميركيين إلى نفسي، لانفتاحه، وصراحته، وسخريته في أسلوب من السهل الممتنع. وأول ما عرفت المسيبى - خارج الجغرافيا - كان في كتاب له هو: «فوق مياه المسيبى في سالف العصر والأوان». كما قرأت له «مغامرات توم سوبر» و «مغامرات هاكلبرى فن»، وعرفت الكثير عن مجتمعات الجنوبيين في كتابات القصاص الأميركي العظيم، وليام فوكنر.

وموسيقى «الجاز» على الرغم من أصلها الإفريقى، فقد تبناها شعب الولايات المتحدة، وكانت فرق «الجاز» من السود حافزاً ومعلماً للبيض في تكوين فرقهم. ويفخر الأميركيون بأن الموسيقى التي يعتبرونها كفن

خاص بمناخهم، ومدائنهم، وإحساسهم الاجتماعي، هي «الجاز». ونتيجة كل ذلك إحساس دفين بأن جنوب الولايات المتحدة وأواسطها واقعة تحت سحر نهرها الكبير، الموصوف «بأول مان ريفر» («سيدها العزيز النهر» في لهجة الأميركيان السمر).

أما أن معرض «توت عنخ آمون» سوف ينتقل من شيكاغو إلى أورليان الجديدة، فلم أعرف بخبره إلا بعد بدء الاحتفالات بافتتاح المعرض بمتحف التاريخ الطبيعي في ثاني مدائن الولايات المتحدة، بعد نيويورك. ثم قابلت في شيكاغو السيدة القائمة بالاستعداد للمعرض بمدينة أورليان الجديدة في متحفها للفنون الجميلة.

هذه هي الدوافع مجتمعة التي حفزتنى على السفر إلى الجنوب. وإذا انصرف الكلام إلى أورليان الجديدة، فلا معدى عن البدء بحكاية موسيقى «الجاز».

قام الرئيس إبراهيم لنكولن ينادى بتحرير «العبيد» مُستندًا إلى الدستور الأميركي. وكان من أشد الرجال ثباتًا على مبادئه المثالية والعملية. فأنتهى الأمر إلى إثارة حرب أهلية شعواء بين ولايات الشمال، ويعرفون «باليانكي» وولايات الجنوب. وراح لنكولن ضحية حفاظه على مبادئه، على وحدة الولايات الأميركية، غداة انتصار جيش الشمال على الانفصاليين، وسحق جيشهم الذي قام على البغضاء الجنسية، والمصالح الذاتية ليقاوم «تحرير العبيد».

تحرر السود، فانفصلوا عن أسيادهم، وبدءوا السعى في مناكب الحرية بمدينة أورليان الجديدة بسبب استعدادها على تقبل الأفريقيين، وكان أهلها «الكربول» قد اعتادوا رؤية بعض السود في أيام الآحاد يغنون ويرقصون

في ساحات مدينتهم على صوت الطبل . ومن هذا إلى تقبل موسيقى حسية جسدية ، طليقة ، بلا نظام ، سبب عجيب هو أن أورليان الجديدة كانت المدينة الوحيدة في الولايات المتحدة التي كانت الدعارة مباحة فيها بحكم القانون ( وقد لا يعرف الكثيرون أنها المدينة الوحيدة هناك التي تطبق القانون المدني الفرنسي إلى اليوم ) . وبعد عام ١٨٩٧ بدأ حصار مزاولة هذه المهنة في حي من المدينة عرف باسم المحافظ الذي قضى بهذا الحصار ، فهو حي « ستوريفيل » . فإذا كان هذا الحي منبت الرذيلة ، فقد كان كذلك منبت موسيقى « الجاز » .

لأن العبيد المحررين التمسوا وسيلة للعيش في أغانيهم على صوت « البانجو » ، أو « الجيتار » ولقد وجدوا في أورليان الجديدة مجالا مستعداً لقبولهم على الرحب . ثم اكتشف السود أن المدينة غنية بآلات موسيقى النفخ النحاسية والخشبية . لأنها بلد اختص بهذه الصناعة من قديم . بالإضافة إلى أن السوق كان محتوياً على آلات نصف عمر ، أسعارها في متناول طالبى العيش . وعلى هذا تألفت منهم فرق موسيقية تعتمد على هذه الآلات ، في مدينة كلفة بموسيقى الآلات النافخة في المواكب والأعياد القومية ، والسيرك ، وحتى الجنازات ، والنزهات الخلوية .

كما وجدت لها مكاناً على الوابورات البخارية التي تمخر عباب المسيسيبي ريحة جيئة من مصبه حتى التقائه بروافده في أميركا الوسطى : أنهار أليزورى ، والأحمر ، والأوهايو . وبذلك اتسع المجال للموسيقين السود بآلات جديدة عليهم ، غير البانجو والجيتار . لم يتلق السود دروساً منتظمة للعزف على آلات النفخ تلك ، ولا كانوا يعرفون شيئاً عن كتابة الموسيقى أو قراءتها . كل أدائهم قائم على التجربة ، والممارسة والحفظ

بالسمع . فكانوا ينقلون الأغاني الشعبية على تلك الآلات ، ويمعنون في التلاعب بألحانها في أسلوب فج ، وألوان صوتية غير معتادة ، وكان ذلك مصدر الإعجاب بجدة ما يؤدون في براعة خارقة وإيقاعات عجيبة .

« الجاز » إذن بدأ ارتجالا واجتهادا من شعب موهوب . نقل الألحان الدارجة على آلات موسيقية يشتد فيها الزعيق ، محاكاة لزعيقهم الحنجري في الغناء . وبهذا نحقق لهذه الموسيقى جدة في الإيقاعات ، وفي التوافق ، والتنافر بين الآلات والألحان ، والصدام الكونترابنطي والهارمونيّات ذات ألوان تخالف ما جرت به الموسيقى الحاملة . والخاصة الكبرى لهذه الموسيقى تعرف « بالسكوبية » ، وهي التوكيد والاتكاء بشدة على النبر الضعيف ، وإضعاف النبر القوى بالمرور عليه مر الكرام .

أنشأ الأفريقيون في أميركا إذن موسيقى من نوع جديد على الإطلاق : شعبي ، سوقى ، منطلق زاعق ، محموم . وأى جمهور أصلح لها من رواد « ستوريفيل » في سكرهم ومهيصتهم ! مما يعرفه رواد علب الليل الرخيصة .. والغالية . النجاح فيها رهين بكل الصفات التي انطلقت من الأبواق والشبابات والسلاميات : الكلارينت ، والكورنو ، والكورنت ، والطرمبيطة والطرمبونة ، وشتى أنواع الطبل والخطب والرقع .

وانتهى الأمر إلى أن تمكن البيانو كلى الاحترام من النزول إلى الحلبة بمنشآت وتركيبات موسيقية مصدرها الإيقاعات والزعقات والسكوبات . ويلاحظ أمران واضحان في هذه الموسيقى : ثبات الإيقاع في القرار ، وعفرتة اللحن وتمزيقه بالإيقاع السكوبي في الأصوات العليا .

وبهذا غدا موسيقى « الجاز » هم ملوك حى ستوريفيل ، شجعهم رواده على الانطلاق والمباراة في الزعيق . والعنصر الأساسى في الموسيقى التي



نشأت بأورليان الجديدة يتفرع إلى نوعين «الراجتايم» و «البلوز». ولا ترجمة لهذه الكلمة الأخيرة بما له علاقة باللون الأزرق، وإنما هذا مصطلح على موسيقى الأسى، والحنين إلى الوطن النائي، وطبيعته هذه جعلت «البلوز» أصلح للأناشيد الدينية أيضاً لدى السود.

ولست أرى ضرورة أو جدوى من محاولة تفسير كل هذه الكلمات. المهم أن «الجاز» بدأ في أورليان باسم «راجتايم»، وإلى جانبه «البلوز». والمهم أيضاً أن نشأة «الجاز» ونموه كانا فيما بين ١٨٩٠ و ١٩٢٠ أما انتشار هذه الموسيقى في أميركا وأوروبا، وفي العالم، فقد بدأ بإصرار وزارة البحرية على حظر الدعارة، وإغلاق بيوتها، ومنتدياتها في حي «ستوريفيل»، وتم ذلك بقرار الحكومة الفدرالية سنة ١٩١٧.

وإذا كانت بعض هجرات موسيقى الجاز إلى الشمال بدأت لماً، فقد انتهت بعد تصحيح «حي ستوريفيل»، وإغلاق ملاهيته، بهجرات جماعية على سفن المسيسيبي البخارية التي تتحرك بقوة الرفاصات الجانبية أو الخلفية، مما نعرفه في أوائل بواخرنا النيلية، وقد سرى بين أفراد هذه الفرق تيسر المعيشة في سان لويس وغيرها من البلدان الواقعة على المسيسيبي وروافده، وفي شيكاغو. ويمكن القول بأن «الجاز»، الذي ثبت في نيو أورليان، نما وترعرع في شيكاغو، وتضخم، وارتفع شأنه - كما هي العادة بالمدينة الغول - في نيويورك.

ولم تقتصر الهجرة من الجنوب إلى الشمال على الموسيقين. لأن دودة القطن - وهو مع قصب السكر عماد ثروة الجنوب - استفحل شرها عام ١٩٢١، منتقلة من المكسيك عبر نهر «ريو جراندي»، وقضت على نصف

محصول القطن في لوزيانا . وكانت أزمة اقتصادية في الجنوب استمرت ثلاث سنوات .

وكانت هذه الهجرات - ومنع الخمر بقانون فيدرالى - مصدر السمعة السيئة التى لصقت بشيكاجو في عشرينات هذا القرن . فقد تحولت المدينة العامة إلى مرتع العصابات التى تعمل في تهريب الخمر، وتسبغ نعباً، مكاسبها على ذوى الذمم الخربة من الباحثين عن الثراء .. عن طريق الوظائف . ولعل القراء يذكرون حكايات آل كابونى وزعامته الرهيبة، وأقرب صورة إليها شاهدناه حديثاً في فيلم «الأب الروحى» كانت «رفاصات» المسيسبى هى أداة الانتقال، يعمل عليها الموسيقيون ريحة جيئة، وعندما يقف الرفاص بمدن «كاىرو» و «سان لويس» و «منى بوليس، إلخ، يشغل أهالى هذه المدن بفرقها الموسيقية طوال وقوف الباخرة .

ولا حاجة بى إلى ذكر أسماء «ملوك الجاز» فمعرفة الفعلية بهم قاصرة، وأنا واثق من أن هواة موسيقاهم يعرفون عنهم وعنهم أضعاف ما أعرف عن فولفجانج، أما دبوس موزار، ويوحنا سباستيان باخ . المهم أن ملك ملوك «الجاز» لويس أرمسترونج، غادر أورليان الجديدة على الرفاص «ديكسى بيل»، وكلمة «ديكسيلاند» تشير إلى «نو أورلينز» . وترك مذكرات عامرة عن نشاطه الفنى في سان لويس، وقد أصبح حتى وفاته بطل أبطال الجاز في العالم أجمع .

إنما اضطررت، تقديماً للمدينة التى أحببت بعد أيام قليلة قضيتها في حيها الفرنسى، المعروف «بالكاريه» (= المربع) أن أبدأ بأهميتها كمسقط رأس فن يجب أن نعمل له حساباً، مقتدين في ذلك بالفرنسى

ديبوسى ، وكان أول من أدخل إيقاع «الراجتايم» فى بعض مقطوعاته ،  
 واييجور سترافنسكى ، ورافيل ، وغيرهم من عظماء ما أسمىها موسيقى  
 الحضارة ، كما عملت حساباً لموسيقى «الجاز» الذى حاول ، ونجح ، فى  
 الانتقال إلى موسيقى الحضارة فى مؤلفاته التى قدمتها بالبرنامج الثانى :  
 «رابسودى أن بلوز» وكونشرتو البيانو والأوركسترا ، وفى متابعة عن  
 فيلم «واحد أمريكانى فى باريس» وأعنى الموسيقى الأمريكى جورج  
 جير شفن .

## چیمی کارتر

حدث هذا مساء الأربعاء ٢٠ من إبريل، ختام يومى الأول بمدينة أوزليان الجديدة، وقد أويت إلى غرفتي بفندق «أورليان - بوربون»، بالحى الفرنسى، استعداداً لمشاهدة رئيس الولايات المتحدة فى التليفزيون الملون، وهو يصعد درج الكابيتول بواشنطن دى. سى. ليخطب الكونجرس فى موضوع «الطاقة»، والخطة التى تقترح بشأنها. وقد جاء بالصفحة الأولى للنيويورك تايمز بعد ذلك بثلاثة أيام مقال حرره جيمس نوتون على أساس تحقيقات صحفية قام بها، هو ومجموعة من مراسلى الصحيفة الكبرى، بمكتبها فى واشنطن. المانشيت: «كارتر تصوره لخطة الطاقة دون أى اعتبار سياسى». وتحتها: «لقد عولت على كبح استخدام الأمة للوقود، حتى ولو كلفنى هذا عدم تجديد رياستي».

جاء فى مطلع المقال الذى شغل نيفاً وثلاثة عواميد: قال كارتر لزمائره قبل أن يعقد حفل تقليده الرئاسة، بأنه عاقد العزم على تصحيح (ريفورم) سلوك الأمة فيما يختص باستخدام الطاقة «حتى ولو كلفنى ذلك عدم تجديد رياستي» ويضيف الصحفى: «إن بالكونجرس ديموقراطيين يشعرون بإمكان الإصلاح، وبعض الآخرين يخشون بأن ذلك قد يعدل من آفاقهم السياسية» (ترجمة حرفية).

«والطريقة التى عرض بها الرئيس مقترحاته بشأن الطاقة، فى هذا الأسبوع تظهر الرئيس فى موقف يكاد يتجرد تماماً عن السياسة. وهذا

عجيب في عاصمة تعتبر الحرص على المصلحة الشخصية من المبادئ الأساسية للقيادة.

«والخطة فكر فيها تحت غطاء السرية بواسطة المختصين تقنيا، وواجهها اعتراض الاقتصاديين، ثم تحررت بواسطة السياسيين. وهذه الطريقة، قد تلقى ضوءاً على أسلوب رئيس غير تقليدى. طريقته دارت على عناصر من النواع الآتى:

«عهد مستر كارتر بكتابة أهم موضوع في سياسته الداخلية، حتى الآن، إلى رجل عقلانى، مترفع، من الحزب الجمهورى، هو جيمس شليزنجر، شديد الاقتناع بأهداف الطاقة، مع أضعف إحساس بالحقائق السياسية.

«ومع أن الرئيس أفضى بأن رجال وزارته أمامهم أوسع نطاق في الحكم، فإن بعض المهتمين منهم اضطروا إلى شق طريقهم إلى الخطة المقترحة، مثل سكرتير النقل، وسكرتير الخزانة رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين».

وتبع ذلك تشريح للمشروع كله، وأثره لدى رجال الطاقة، ومن يعينهم الأمر في شتى الأنحاء والمراكز.

جلست إلى التليفزيون إذن، في مساء ذلك الأربعاء، أشاهد قاعة اجتماع الكونجرس الحاشدة، وهى تنتظر مقدم الرئيس كارتر. ثم ظهر شخص نحو يمين الناظر إلى الشاشة وصاح بصوت جهورى معلناً: رئيس الولايات المتحدة، دخل بعده مستر جيمى كارتر في بساطة وألفة، يحيى المعارف يميناً ويسرة باليد أو بالإشارة. متجهاً إلى المنصة حيث بدأ خطابه



على التو، في جو توقع شديد، وقد ران السكون على المجلس بعد نوبة التصفيق المعتادة.

أقدر أن الرئيس تكلم في حدود ساعة، واضح السماح على محياه، يتحرك يمينه ويسرة حركات قصيرة، كمن يغير وقوفه من قدم إلى قدم - والصورة لا تظهر منه إلا نصفاً أو ثلاثة أرباع. لا يفارقه الهدوء مطلقاً، ولا يختفى الابتسام إلا في فترات قصيرة.

سمعت الخطاب كله بوعي وتركيز، وإن لم أهتم كثيراً بتفاصيل ما يعرض من مقترحات أولها ضريبة خفيفة تفرض على المستهلك للنفط، وتفرض في زمن معين قادم.

فمركز اهتمامي هو الشخصية الواقفة في الصورة أمامي، وأثر الخطاب على أعضاء الكونجرس وخاصة عندما قال مبتسماً في سذاجة بأنه يدرك تماماً أن مطلبه ليس من المطالب التي تحوز قبول السامعين. وكان واضحاً للجميع، وحتى لنا نحن عابري السبيل - بأن تلك البلاد الواسعة الأرجاء بمائتي مليون من سكانها تستهلك الطاقة المتاحة - البترول - باستهتار وتعسف في كل مرافقها الصغرى والكبرى، في البيت، والنذوة، والمصنع، وفي كافة أجهزة الإعلام، إضاءة وحركة، تصنيعاً، ودفناً وتكييفاً، وحلاقة ذقن وتعقيص شعر، وفي الآلاف المؤلفة من سيارات الركوب التي تشبه البهو الفسيح الأنيق، وكاميونات التجارة، وكأنها بيوت تتحرك - أقول: كان واضحاً لنا جميعاً أن من المحال استمرار الحال، على هذه «البعزقة» المحمومة، وأن يوماً قادمًا سوف يدق ساعته لتبلغ الناس حدود الممكنات التي تعطيها هذه الطاقة، حساباً لنفاد الوقود.

إذن فالمطلوب أولاً: الاعتدال، والاختزال في استهلاك البترول، والجهد

والكد في البحث عن مصادر للطاقة، جديدة أو قديمة. حرارة الشمس، والفحم الحجري، والطاقة الذرية وعدم التلوث في استمرار البحث، والتوسع فيما تنتجه بطون الأرض بالآسكا.

كل ما أثاره الرئيس كارتر يكشف عن خلفية قلق بالغ لدى الغرب كله من تكرار توقف الضخ. أما التهديد البعيد فهو استمرار الحال على هذا المنوال، فإن الحقيقة الرهيبة هي أن يومًا محتوم الأجل يصبح من الثابت فيه نفاذ كل المخزون بباطن الأرض، حتى في أعماق المحيطات. ولقد ذكرني هذا «بموضوع إنشاء» كان قريباً من قلب مدرسينا الإنجليز قبل حرب ١٩١٤. لم تك الدبابة قد اخترعت وكانت الطائرات أقفاص دجاج هزيلة، والسفن والقاطرات جل عمادها على الفحم، والسيارات كانت ترفاً ووجاهة تسير فرادى كل حين ومين بالشارع الذي نسميه اليوم رمسيس! فكان «موضوع الإنشاء»: من المتوقع أن تستنفذ المناجم فحمها، فماذا يكون العمل حينذاك: وكيف نتصور وسائل اتقاء هذا القضاء المحتوم؟

آسف إن أبعدني موضوع الطاقة عن هدي، وهو شخصية الرئيس جيمي كارتر، وأثره على الأزمة التي نعيشها في الشرق الأوسط مهبط الأديان السماوية، ومنبت حضارات عظيمة، وقد تعقدت الأمور من جراء شعب خليط هاجر من مساقط رأسه في شرقي أوروبا وغربها وجار على السكان الأصائل، عرباً مسلمين ومسيحيين، ويهوداً شرقيين، لغتهم جميعاً العربية، وحكم الزمان على المغلوبين منهم أن يتفاهموا بلغة التوراة، وقد تحولت على أيدي الدخلاء إلى عبرية بزميط، فرضتها دولة شديدة التعصب، عنصرية المذهب، دموية المزاج.

لم انته في فحصي وبحثي إلى شيء ذي بال ، ولا دفعني إليه تفاؤل أو تشاؤم ، بل مجرد ما نتوقعه من الموقف الجديد الذي وقفه الرئيس كارتر بين العرب والإسرائيليين . وهأنذا أصدق القارئ بما سجلته في أوراق طائفة ، قبل أن أبلغ هذا الشرح والتفصيل ، مجرد انطباع من رؤية الرئيس الأميركي في التليفزيون الملون يخطب السلطة الثانية في بلاده .

تصور سياسى بعد رؤيتي للمستتر كارتر يتحدث إلى الكونجرس

هذا رجل عملى ، مزارع متطور ، بكل معنى التطور في تلك البلاد محددة التخصص . ناجح في عمله ، طيب السيرة ، يعيش في بلده « بلينز » محبوباً من أهلها . إنسان متدين ، حريص على تقاليد مذهبه في إلقاء درس الأحد بالكنيسة . أول نجاح له خارج الفول السوداني ، كان انتخابه حاكماً لولاية جورجيا . وكان هذا إشارة إلى طموحه نحو المركز الأسمى الذى بلغه مع مطلع العام الحالى . وبهذا دخل السياسة من بابها الكبير رأساً ، لا كرجل سياسى ، بل كأمرىكى حالفه التوفيق في زراعته وتجارته ، كما كان ناجحاً في حكم ولايته . ونجح عندما كانت أميرىكا تستغفر ربها فيما وصل إليه حالها تحت رئاسة رجل لم يسلك الطريق السوى ، وقال عنه أكبر صحفى أميرىكى في حديث خاص قبيل وفاته ، وقد بلغ الثالثة والثمانين من العمر ( وولتر ليمان ) : « إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون أسوأ من كل ما رأيت في حكم الأحد عشر رئيساً الذين عرفتهم . الديمقراطية في خطر ، والمحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة . لقد قسوت على آل كيندى ، بالرغم من ثراء أفكارهم . ولكن الأهم والأساس في الحياة العامة ليس الألمعية ، وإنما هو : « القوام الخلقى » . يختار

معاونيه، ويحركهم في كل اتجاه يراه أو يرونه. هادىء الطبع، ما فتى موضوعاً تحت مجهر الصحفيين السياسيين. وفي حديث واحد منهم عنه، أشار إلى وصف الرئيس السادات له، بعد اللقاء التاريخي في واشنطن، حين عبر عن انطباعه بأنه إنسان «سويت» وكان تعليق الصحفي: هذا التعبير، وإن كان غير صحيح من الناحية «الأيديوماتك» فهو صحيح فيما يعنيه البرزيدانت السادات.

«الرجل عذب في عيونه، هادئ في ابتسامته، وبهذا حقاً قد جمع اللقاء بينه وبين رئيسنا، جمع بين طبيعتين إن لم تتشابهاً ظاهراً، فإن سلامة الغرض، وصراحة العرض، كانا أساساً لتبادل الثقة بين رجلين، من بيئة ريفية. وقد عبر كارتر وصفاً لهذا اللقاء بما يمكن اختزاله بكلمة «أوه - كيه». فلنركز الضوء بعد انقضاء أكثر من شهر على هذه الوقائع بقصاصات من صحف شيكاغو ونيو أورليان ونيويورك، لا من ناحية أنبائها، بل لإكمال التحليل لشخصية «كارزماتية» من النوع الناعم لا الزاعق/الهائج، المحطم للعوائق.

عرفت أولاً أن كارتر خدم مجنّداً في البحرية، وفي الغواصات الذرية تحت قيادة الأميرال هايمان ريكوفر. وأمامى صورة لكارتر يستقبل بالبيت الأبيض رئيسه السابق في البحرية.

وهذا مختصر ما جاء بصحيفة «النيويورك تايمز» أرسله الصحفي من واشنطن في ٢٤ من إبريل: سأله الصحفي: «من هو أعظم الناس أثراً في جيمى كارتر؟ أجاب بعد تفكير ملى، وكان الموضوع لم يرد من قبل: والداه طبعاً، وأكيداً أستاذة في المعهد العالى اسمها جوليا كولمان ذات صوت حنون. ثم يصل دون تردد إلى الأميرال هايمان ريكوفر، اللفظ،

المشاكس الذى أنشأ أسطول الغواصات الذرية .  
 « كان له أثر عميق على حياتى ، أكثر من أى إنسان ، فيما عدا  
 الوالدين » .

يقول مستر كارتر وهو يتذكر تلك الحقبة الهامة فى تكوينه ، منذ عشرين  
 سنة مضت عندما كان شاباً ، ضابطاً بحرياً طموحاً ، وكان الأميرال قبطانه  
 المتجهم الصارم ، المستقل برأيه عن الجماعة ، شديد الحرص جداً على  
 تحقيق أهدافه ، غيوراً على سلطاته ، أوتوقراطيّاً فى ممارستها . فهناك إذن  
 دلالات على أن أثر الأميرال البالغ اليوم السابعة والسبعين من العمر  
 أصبح القوة الفعالة فى تكوين أسلوب الرئيس كارتر الذى تحول من  
 مرءوس الأميرال ، إلى قائده الأعلى .

وهذا الأسلوب يقلق بال مساعديه فى البيت الأبيض إذ يشعرون بأن  
 منحاه هو خنق مرءوسيه وتخويفهم ، وهو - مثل الأميرال - شديد  
 الإحساس بقيادته المعنوية الأخلاقية ، يستريح إلى خطب الوعظ . وهو -  
 مثل الأميرال - يمكن أن يكون لطيفاً رقيقاً مع من يريد إرضاءهم  
 وإقناعهم ولكنه - مثل الأميرال ، مقطب الجبين - يمكن أن يكون جافاً ،  
 حاد اللسان مع من لا يتفقون معه ، أو يثيرون استياءه .

وواصل الكاتب شكوى رجال البيت الأبيض من حزم الرئيس ،  
 واملاء إرادته دون أن يسمعوا منه كلمة تشجيع أو ملاطفة .

قال كارتر فى الرسالة التى قدم بها نفسه إلى الناخبين : « وكنا نخشى  
 الأميرال ، ونحترمه ، ونجهد فى إرضائه . وفى هذا الصدد لا أذكر أنه نطق  
 يوماً بما يعنى رضاه عنى ، وعندما قرأ أحد مساعدى كارتر هذا الكلام  
 صاح : إنه الرئيس بعينه :



وواصل الصحفي على هذا النمط، محاولاً تصوير الجو في « البيت الأبيض » كأنه بيت التوجس، والخضوع، والعمل الشاق، دون جزاء أو شكور.

ولم يتأخر الرد على هذا المقال، من المتحدث الصحفي عن البيت الأبيض. ليس فيه من جديد، فهو الصورة الديوانية التي تنتقص من « ادعاءات صحفي نيويورك تايمز »، وتؤكد أن المتحدث الصحفي تحرى من كبار موظفي « البيت »، فلم يجد سوى واحد منهم ذكر أنه تكلم مع الصحفي، ولكن في غير ما جاء بمقاله. كل هذا لا يعنيني، لأن المتحدث الصحفي يبدو ناقص الخبرة بحياة البحر - ولا أزعم لنفسى من هذه الخبرة إلا قليلاً - بسبب عملي السابق مع قومندانات البحرية المصرية أيام اشتغالي بعلوم البحر، ومع القومندان الإسكتلندي للباخرة «مباحث»، وعليها بعثة السير جون موري في المحيط الهندي.

وأهم ما خرجت به من تجربتي المحدودة احترامى الكامل لرجال البحرية. فأخطار البحر، والحرب تتطلب من القيادة صرامة تامة، وسلوكاً أخلاقياً سامياً. وأدركت أن الدرس الذى يتلقاه مثلى من النظام البحرى، يترك أثراً بعيداً في طبعه، دون أن يغير من طبيعته المدنية. ولعلى أخرج من كل هذا باطمئنانى إلى أن الرئيس كارتر رجل على خلق عظيم، وأن إحساسه عميق بواجبه لا نحو وطنه فحسب، بل نحو العالم بحكم رياسته لواحدة من أقوى الدول في عالم اليوم. ولا أقول هذا تفاؤلاً بما يمكن أن يتم على يدى كارتر فيما يعيننا، ويعنى مستقبل بلادنا. فأمر هذا كما قال الرئيس السادات يتعلق بنا وحدثنا، إلا إذا كانت « وحدثنا » هذه تعنى شيئاً أكثر مما أفهمه أنا عندما أذكر بمستقبل بلادى.

إنما أقول : أيًا جاءت نتائج جهود كارتر في سبيل الوصول إلى حل في منطقتنا إيجابيًا أو سلبيًا ، فإنني مطمئن مقتنع بأن الولايات المتحدة تحظى برئيس تربي على خلق رجال البحرية ، وأنه صادق الوعد مستعد في تنفيذه الذهاب إلى أبعد حد .

## كيسنجر.. ميترنخ العصر الحديث

١

هذه ترجمة حديث صحفي، عن «الأوبزيرفر» عدد ١٢ يونية: غادر هنري كيسنجر وزارة الخارجية (سكرتيرية الدولة) في يناير من هذا العام بعد رئاسة جيمي كارتر وعرضت عليه خدمات كاتب ومعلق سياسى بلغت ستة ملايين دولار، وفي الأسبوع الأول من الشهر الجارى ذهب دجلاس كيتز نائب رئيس صحيفة «الأوبزيرفر» اللندنية وكنيث هاريس (أميريكى) محررها، إلى الدكتور كيسنجر فى مكتبه بالدور العاشر لمركز الدراسات الاستراتيجية بمدينة جورج تاون، لإجراء حديث صحفى معه على دورين وتقدما إليه بأسئلة لا تنتظر انتهاءه من كتابة مذكراته فى عام ١٩٧٩. ومن الأسئلة المزجاة، على سبيل المثال: لماذا يعتبرك بعض الناس فيما يقرب من مجرم حرب؟ كيف استطعت كيهودى التعامل مع زعماء العرب؟ ولقد أرخى سدول الكتمان كثيفة على موضوع واحد... صلاته الشخصية بالرئيس السابق للولايات المتحدة، ريتشارد نيكسون.

ص: أنت أول وزير خارجية منذ الحرب العالمية الثانية، تستغفى من وظيفتك، وقد ازداد التقدير العام لك؟ حسبما ظهر فى عمليات الاستفتاء بأوروبا والولايات المتحدة. وكان هذا على عكس ما جرى لدين أتشيسون وجون فوستر دلاص ودين راسك. وما تفسيرك لذلك؟.

ك : كنت بالخدمة في حقبة تطلبت تغييرات كثيرة في سياسة أميركا . والحاجة إلى التعديلات لم تكن من اختراعى ، أو اختلاق الدواوين التى عملت بها . وعملية التغيير كان يجب أن تحدث في فترة مشوشة مرتبكة وخلافات نشبت في هذه البلاد من جراء حرب الفيتنام أولا - ووترجيت ثانياً . وهذه المتغيرات مهدت لعمليات درامية رمزية كشفت عن طريقة جديدة في تناول المسائل وتنظيم دولى جديد وجاء هذا مساقاً لإحباط وخيبة في بعض المواضع ، وتفكك السلطة التنفيذية وتحللها في مواضع أخرى بسبب « ووترجيت » . وكان الجمهور الأميركي في حالة تحطم ، كما طال الزمان بالكونجرس يتطلع أعضاؤه إلى عمل يفخرون به أو يعتبرونه عنواناً عليهم . وهكذا خَرَجْتُ من تلك الحقبة في صورة معقولة بسبب هذه الظروف إلى حد ما .

ص : ومع ذلك يعتبرك بعض رجال الجامعات ، والصحفيين فيما يقرب من « مجرم حرب » وهدد أساتذة وطلاب بالتظاهر ضد عودتك إلى الحياة الجامعة . لم كل ذلك العداء ؟ .

ك : أما من الصحافة فاعتقادى أنها أقلية صغيرة . والموضوع الأكثر أهمية ليس طريقة معاملتى ولكنه في التساؤل ماذا جرى لمجتمع المفكرين في الوقت الراهن وفي السنوات العشر الماضية . فأدى إلى هذا الكره الفظيع للذات ؟ .

إننى أفهم أن يختلف الناس على قرارات فردية اتخذت في خلال حرب فيتنام ، لأن كثيراً منها كان شديد العسر ، انقسم الناس بشأنها قسمة متعادلة إلى حدٍ ما . ولكنى كنت أحسب أن المفكرين

بخاصة يفهمون المأساة في موقف يبلغه الإنسان عندما يتولى مركزاً فيجد أن ٥٥٠,٠٠٠ أميركي مشتبكون منذ زمن في معارك. كيف يمكنك كدولة عظمى تخلص نصف مليون أميركي من المعركة في ظروف لا تسيء إلى روح الشعب ولا إلى الالتزامات الأميركية في أنحاء العالم. إنه لأمر شديد التعقيد.

والواقع أننا خفضنا بشكل محسوس القوات الأميركية عاماً تلو عام، عندما كنا في الخدمة وخفضنا عدد المصابين «قتلى وجرحى» في فيتنام من ٩٠٠٠ في السنة الأولى إلى ٤٠٠٠، وذلك قبل اتخاذ سياسة جديدة ثم إلى ١٠٠٠ في السنة الثالثة. ومعنى هذا الهبوط إلى أكثر من النصف كل عام وإلى أكثر من هذا جداً في أعداد التخفيض من القوات.

ويمكن أن يتجادل الناس إلى الأبد فيما إذا كان في استطاعتنا إجراء كل ذلك قبل سنة من تولينا، ولكن الحق أنا بدأنا التخلص والفكاك من أول يوم.

واستراتيجية هذا الفكاك رسمت في مقال كتبه في خواتيم سنة ١٩٦٨ ونشر في يناير ٦٩ بمجلة «الشئون الخارجية». لا أريد أن أناقش فيما إذا كنا على خطأ أو صواب. أما أن يوضع ذلك في حساب التعلق بالحرب. أو أننا مجرمو حرب، وما إلى ذلك من شعارات فلنا أن نتساءل إن كانت بعض هذه الجماعات ترى من الضروري إقامة عدد رمزي لها. ففي كل آن يمكنهم تعليق أي شيء بموضوع فيتنام، يخرجون من خنادقهم إلى اجتماعات تشبه اجتماع المحاربين القدماء، ليحققوا الأجداد



الخالصة في الستينات، عندما كانت المؤسسات معرضة للهجوم. وأعتقد أن لا شأن لشخصيتي بكل هذا وقد حدث ذلك لكثير ممن كانوا منضمين إلى حركة السلام ولو أنهم خالفوا وسائل تلك الحركة واستراتيجيتها، ووافقت أنا على تحركاتهم، وبذلت قصارى جهدى لبلوغ السلام مع اختلاف وسائل عن وسائلهم.

ص : ما شعورك حيال تهجم هؤلاء الناس عليك ؟

ك : « شوف يا سيدى [ هذه ترجمتى لكلمة « ول » التى درجنا خطأ على ترجمتها الحرفية : حسناً ] . أكثر هؤلاء الناس عملت معهم سنين عدة ، ومع قلة وزنهم لدى الرأى العام فإنهم جزء من تاريخى الفكرى . ويؤلمنى تَهْجُمُهُمْ عَلَى ، أكثر من نقد الآخرين لى ، فى أقصى اليمين .

ومن ناحية أخرى ، فقد توقعت حدوث هذا منذ زمن طويل . وبقيناً حاولت فى وظيفتى أن أضمد جراح الحرب الفيتنامية ولا أظنك ملاقياً طوال قيامى بالخدمة أى أثر لهجوم على حركة السلام لأنى فى صميمى احترم موقفهم الأخلاقى . إنهم لا يسببون لى أى خسارة ولكن الوقت قد حان لإقفال باب الجدل حول حرب فيتنام .

ص : هل تعتقد أنك وفقت بين عملك كوزير للخارجية ( سكرتير الدولة ) ، أى الرجل المترفع عن المعارك اليومية ، وبين الدبلوماسية المكوك - أعنى الرجل الذى يتحرك بشخصه إلى نقاط الأزمة ، ويصرف كماً عظيماً من الوقت والجهد فى المفاوضة بشخصه ؟ .

ك : ألاحظ قبل كل شئ أن من خلفنى ، السكرتير سيروس فانس وهو موضوع احترامى العظيم ، أعلن منذ توليه أنه لن يضيع وقتاً فى

الأسفار، وهو اليوم يتنقل في رحلات مثلما كنت أفعل . ذلك لأن جدول الأعمال يفرض ضرورات معينة . فلا طريق لسكرتير الدولة يجنبه حضور اللقاءات الوزارية التي تعمل في مخالفتنا الهامة، أوفيا له صلة بنا . لا طريق إلى تجنب التفاوض مع الاتحاد السوفيتي في موضوع الأسلحة النووية بعيدة المدى، أو مع الصينيين . ثم هناك نشاط بين بلاد الشمال وبلاد الجنوب يتطلب على الأقل حضوراً، ولو رمزياً لاميريكاً .

ص : ولكن السؤال ألقى خصيصاً بتلك الساعات الثمينة التي كنت تتحرك فيها ريحة جيئة في الشرق الأوسط ، ألم يكن ممكناً أن يقوم غيرك بهذا ؟

ك : كلا . أظنك إذ تتأمل الموقف في الشرق الأوسط ترى أنه كان في مسيس الحاجة إلى عصارة الحضور الأميركي . ففي وقت تحركي هناك بشخصي ، كان إيقاف ضخ البترول قائماً ، وكانت هناك هدنة قلقة وحضور شامل للسوفيت وخطر انفجار جديد . إن صورة العلاقات كلها ، كانت تقتضى التغيير . وخطوات لا سابقة لها تتخذ في اتجاه السلام ، وهذه عملية لم تكن بالسهولة التي يمكن أن يقوم بها موظفون مرءوسون ، فقد كان هذا مستحيلاً مع شخصيات مثل السادات والأسد ، تتحمل المسؤولية بنفسها ، كان ذلك مستحيلاً بدون حضور سلطة من الناحية الأخرى (الأميركية) هي التي أمكنها اتخاذ الخطأ الصعبة .

ص : سؤال سريع في ذيل هذا : ألم تعجب كيف استطعت ، أنت اليهودي السير قدماً ، أو أحسن من أي شخص آخر ، مع الزعماء العرب ؟ .

ك : « شوف يا سيدى » كان فى هذا عنصر مثير للمشاعر . إننى حاولت فى كل مفاوضة أن أفهم إلى أعمق إمكاني ، نفسية ( بسلوكولوجية ) ومطمح ، أو آمال الأشخاص الذين أتعامل معهم . إنها لخرافة دارجة ، الاعتقاد بأن مفاوضاً ذا قيمة هو من يتحدث إلى أشخاص مختلفين ، كل بكلام يخالف الكلام مع الآخرين . مستحيل أن تنجح بهذه الوسيلة ، لأنك تقابل هؤلاء الأشخاص مرات ومرات . المفاوض الطيب هو من يمحض من يفادضهم الثقة بأنهم يتحركون فى الطريق الذى يتعلق بمصالحهم ربما أن هؤلاء مسئولون عن مستقبل أوطانهم ، فإنك مجازف دون تبصر إذا حاولت خداعهم فى هذا . كل ما يمكنك عمله هو أن تؤثر على حواف إدراكهم ، وكنت أعتبر هذا قمة دورى .

سؤال خاص بمفاوضات روديزيا : والإجابة عليه :

ص : فى بريطانيا تجرى مناقشة عن الصلة بين وزير الخارجية ورئيس الوزراء . وقد جاء زمان فسدت سياسة بريطانيا بسبب تدخل رئيس الوزراء فى عمل وزير الخارجية : تشامبران وإيدن مثلاً . هل يمكن أن تعطينا فكرة عن صلة عمل جيدة بين رئيس الولايات المتحدة وسكرتير الدولة ؟ .

ك : « شوف يا سيدى » . نظامنا مربوط بعجلة الرئاسة مباشرة . أما رئيس الوزراء فى بريطانيا فيرأس هيئة تتخذ قراراتها مجتمعة وفى اجتماع الوزراء الأمريكان لا تتخذ قرارات جماعية . وإذا كان رئيس الولايات المتحدة حصيفاً فإنه لا يدع لمجموع وزارته اتخاذ قرارات . لأن القرارات والمسئولية على عاتقه وحده ، وكل أعضاء مجلس الوزراء عندنا فى الحقيقة ، مستشارون للرئيس .

والطريقة المثلى هي التى تجعل الرئيس مستريحاً لطريقة اتخاذ القرارات ، وأن يطمئن إلى أنه اتخذ قراره بعد اختيار حكيم لواحد من ضمن قرارات عدة ولا يعد هذا قاعدة مطلقة لأن الأهم فى ذلك متوقف على طريقة فهم الرئيس وتصوره وإدراكه لدوره ، ثم على شخصيته .

فالرئيس نكسون كان مؤمناً بأن السياسة الخارجية تخرج « من البيت الأبيض ، والرئيس فورد كان مؤمناً بمسئولية أكبر يلقيها على أكتاف الوزارة ، والرئيس كارتر مؤمن بالدور الأكبر للرياسة ، وقصارى القول فى اعتقاده هو أن النظام الأمريكى يؤدى أحسن أدائه عندما يكون سكرتير الدولة ( وزير الخارجية ) ليس فى صف الناحية النظرية فحسب ، ولكن فى صف الواقع . فبغير هذا يصبح ديوان وزارة الخارجية عاطلاً . وإذا طال به الإهمال ، انزاحت عنه المسئولية .

ولكن يمكن لسكرتير الدولة أن يكون النصوص الأكبر . فالواجب أن يكون الرئيس وهو ، متداخلين عقلياً ( كل فى عقل الآخر ) ، إلى درجة ألا يتحقق تمييز بين من هو الذى قرر ، وماذا كان قراره هذا .

ويتساءل الصحفيون عن عدد الخلافات بين رئيس ووزير خارجيته . وعن كيفية تغلب الرئيس على سكرتير دولته . ومن رأى إذا حدث تغليب رأى الرئيس على السكرتير مرات عديدة ، فإن من واجب الرئيس أن يعين شخصاً آخر للخارجية . فواجب الاثنين معاً أن ينشئا سياسة متماسكة يتفقان عليها . فإن لم يتفقا كان هذا

خطأ. أحدهما يمكن أن يصحح رأيه، إنما النتيجة وبال على النظام ذاته.

ولهذا أظن أن الصلة بين ترومان وأنشيسون كانت مثالية. كما أعتقد أن صلاتي مع الرئيسين اللذين عملت معهما كانت طيبة. وعموما أعتقد أن سكرتير الدولة ينبغي أن يكون المستشار الأول. فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض.

## ميترنخ العصر الحديث

٢

استأنف ترجمة الحديث الصحفى مع الدكتور هنرى كيسنجر أجراه اثنان من صحفى «الابزيرفر» اللندنية.. وقد وقفت به عند قول كيسنجر.. وعمومًا أعتقد أن سكرتير الدولة ينبغي أن يكون المستشار الأول للرئيس.. فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض.

وختام إجابته هو: «ومع أنى شاركت فى الاجتهاد لتحقيق قولى - فالأمر ضرورى فى بعض الأحيان - فإن وسيلتى لم تك أفضل فى هذا التحقيق».

ص : هل الكونجرس غدا أصعب، أو أسهل مرأسًا فى تعامله مع وزير الخارجية؟.

ك : لقد تغير الكونجرس فى السنوات الثمان، مدة خدمتى. فحين نزلت إلى واشنطن كان به عدد من الشخصيات القيادية - فى مجلس النواب والشيوخ - تستطيع أن تتبين منهم الممكن، ومع من يمكن التفاوض.

أما اليوم فلا يوجد قائد رأى يملك الأصوات الكافية لتقدير موقفك بدقة. وعلى هذا نجد تحالف مجموعات لكل شأن من الشئون. وتتغير هذه التحالفات بتغير الموضوع. وهذا يستقطع وقتًا



غير محدود من سكرتير الدولة . وقد قضيت نصف وقتي مع الكونجرس ، وأنا على ثقة بأن من خلفني يصرف معه وقتاً معادلاً لما صرفت .

الأمر الثاني في أن الكونجرس قائم لإصدار القوانين لا لياشر السياسة اليومية ، والشئون الخارجية . وإصدار القوانين عملية تقتضى خطوات يتم فيها التفاهم على حلول الوسط وينتهى بالموافقة على تلك القوانين . أما الشئون الخارجية فهذه عملية متواصلة تتوقف على الإحساس الدقيق بها تحت السطح .. وتدخل الكونجرس في قرارات تكتيكية صميمة يؤدي في الأقل إلى أضعاف الترابط المنطقي ، لأن لكل تدخل تحالفاً مختلفاً ، وتنشأ عن ذلك تعقيدات كبيرة .

ص : هل كان لسنواتك الأولى في ألمانيا حتى سن الخامسة عشرة تأثير تكويني على تفكيرك ؟ .

ك : أظنك تتوقع أكيداً أنه كان لها بعض التأثير على تفكيري ، أى نعم .  
ص : هل لك أن تفصح أكثر ؟ .

ك : أقول لك : كان أثرها بطرائق متعددة . وأظن أنه من غير الممكن الحياة في دولة شمولية وخاصة لعضو في جماعة مضطهدة ( اليهود الألمان ) - دون التحقق من أن المجتمعات معرضة لمصائب لا راد لها ، لعدم وجود طريق واضح يؤدي إلى اتجاه إيجابي .

ثانياً : في ظني - على الرغم مما يبدو في هذا من « مسح الجوخ » أن الحياة في ألمانيا النازية تحمل الإنسان على تقدير أهمية الولايات المتحدة .

وهي الأهمية التي يبدو أن الأميركيان القح لا يفهمونها ،

وبخاصة أولئك المفكرين الذين درجوا على الإنحاء باللائمة على بلادهم.

عندما وصلت حديثاً إلى هذه البلاد طلب منى فى المدرسة الثانوية أن أكتب موضوع إنشاء عما أراه، والمعنى من مجيئى إلى أمريكا. فكتبت بأن الأمر ليس سهلاً على مهاجر يتكلم لغة البلاد المضيفة بلكنة أجنبية. ولكنى عندما أفكر بأنى أستطيع مع هذا عبور الطريق رافع الرأس فإنها تبدو لى تجربة مثيرة إلى حد كبير.

نعم اعترف بأن الأمر شخصى. ولكن كل من عرف الحرب فى أوربا، ورأس استقبال الشعوب المحررة للأميريكاني بعد ختام الحرب، يجب أن يعتقد بأن هذه البلاد (أمريكا) لها دور هام جداً فى إحياء الأمل بين الناس، ويتعين عليها ألا تداوم على تعذيب نفسها مما يؤدى إلى تخطيطها.

ص : متى بدأت التفكير المنظم فى السياسة الخارجية؟

ك : شوف ياسيدى (ترجمتى لكلمة «ول») لقد كنت دائماً مهتماً بالشئون الخارجية ولكنى لم أفكر قط بأن فى إمكانى القيام بدور ما فى تلك الشئون. ودام هذا إلى أن التحقت بالجيش، أى حتى سافرت إلى أوربا، مجنّداً فى الجيش الأمريكى، وقررت أن هذه منطقة أحتاج إلى التفكير فيها أكثر من ذى قبل، وذلك ما جرنى إلى جامعة هارفارد والتخصص فى هذا الميدان.

ص : هل كان تفكيرك نافعاً مما يشبه القول «يجب علينا ألا نلج هذا الجحيم مرة أخرى، يجب أن أحاول القيام بدورى فى إيقاف العمل؟

ك : إذا كان تعريفك للجحيم لا يقتصر على الحرب وحدها، بل ينطوى

على النظم الشمولية بقضها وقضيضها فإنى مجييك أكيداً بأى نعم !  
وبشدة .

ص : هل لديك مجموعة آراء متماسكة حول السياسة الخارجية ، مثلما كان  
لدى بعض ساسة أوروبا الكبار ، فيما مضى ؟ .

ك : أس السياسة الخارجية أن تربط الأفكار بالممكنات . فلا أظنك  
تستطيع مباشرة السياسة الخارجية بطريقة دجماطية بحتة . وحتى  
الدجماطيين الذين كانت لديهم بعض أفكار ، ولو بدائية فإنهم  
يجهدون فى تحقيقها . وقد ينتظرون الظروف التى تفرض عليهم هذا  
التحقيق . فالحقيقة أنه لا وجود لشيء اسمه الدجماطية البحث .  
كانت لدى بطبيعة الحال أفكار . فكرت ملياً فى الصلة بين البنية  
القومية ، والشرعية الدولية والسلطة ، أعنى الصلة بين الأفكار  
المثالية التالية والواقع القائم . وحررت ورقات فلسفية فى هذا  
الموضوع . إنما السياسى فى الوقت نفسه لا يصح أن يكفى  
بالفكرة ، بل يجب أن يلم بمعالجة الوسائل . وما حاولت إثباته هو  
الوصل بين الفكرة والوسائل . لأن أس مباشرة السياسة هو أنه  
لا سبيل إلى إدخال كل العوامل الممكنة فى حسابك .

ص : أى كتاب ، ومن المفكر الذى كان أعمق أثراً فى نفسك ، وأنت  
مراهق ؟

ك : شوف : كما قلت لك ، كنت معنياً أكثر بفلسفة السياسة . تأثرت  
كثيراً باسبينوزا وقانت ، كما تأثرت بناحية واحدة من نواحي  
شينجلر - لا فى توقعه تدهور الحضارة ، فهذا أمر ثانوى - ولكن فى  
فكرة وحدة المجتمع حيث تلتقى الفلسفة ، والفن ، والرياضيات ،

والسياسة في إطار مفاهيم واحدة. راقبت لى هذه الفكرة جدًا، ولا أدري ماذا كانت نتيجتها العملية في الوصول إلى المباشرة السياسية، إلا أن تكون قد أثارت اهتمامى بمجتمعات مختلفة. ص : لقد قورنت في أغلب الأحيان بميترنخ وبكاسهلى. هل يمكن أن تقارن بشخص ما؟ ولماذا يذكر الناس دائمًا فيما يختص بك هذين السياسيين من أهل القرن التاسع عشر؟.

ك : شوف، لأننى وضعت كتاباً عن ميترنخ وكاسهلى. ومن سخریات القدر أن جاء هذا الكتاب عفواً. فالأصل أنى أردت وضع مقدمة لكتاب عن بسمارك، أوضح فيها الفرق بين سياسته الخارجية وسياسة من سبقوه. ولكن التقديم طال ونما حتى انتهى إلى كتاب بعينه. أما الكتاب عن بسمارك فقد توقف في الطريق ولم أتمه قط. كتبت منه ثمانية فصول وتخلّيت عنها عندما ركزتها في مقال واحد. إنك لا تستعمل التاريخ، كما تستخدم كتاباً في الطهى، فتقارن نفسك بفرد ما. لقد أثر على ميترنخ بمهارته الدبلوماسية، وبما حقق كاسهلى، وميترنخ، والسياسة الآخرون. لقد أقاموا تسوية دولية عاشت قرناً من الزمان.

إلا أن الدروس التى يمكن استخلاصها مما أحدثوه لا مكان ذا أهمية لها في عصرنا.

ص : عندما كنت تفكر وتؤلف في السياسة الخارجية، وأنت أستاذ شاب، هل طرأت عليك فكرة قيامك يوماً بمباشرة سياسة خارجية، أى أن تصبح صاحب سياسة؟.

ك : عندما كنت أستاذًا شاباً في هارفارد، كان من المستحيل أن أتصور عملية تنتهى بى إلى أن أصبح الشخص الأول في وضع سياسة.

خارجية . فكرت في أن أستشار عرضاً في شئون محدودة ، ولكن هذا لا يعنى أن أكون واضح سياسة . كلا لم تطراً على مطلقاً فكرة طلوعى كشخصية أولى في مباشرة سياسة خارجية .

ص : هل وجدت في الإعلام الهائل حولك ، وأنت تسافر من هنا وهناك ، أو حتى وأنت بعقر دارك أمراً يعينك في مباشرة السياسة الخارجية ، أو يعرقلك ؟ .

ك : في ذروة شهرتى الإعلامية ، وجدت أنها مفيدة جداً . لأنها تمكنت من إعطاء صورة للسياسة الأميركية في وقت متاعب داخلية قاسية . ولكنها لم تعد خيراً خالصاً فيما بعد ، لأنها عرضتني هدفاً مكشوفاً للهجوم على .

ص : قلت يوماً : السلطة أعظم مقو للأعصاب ( الأصل « أفروديزياك » ) ، ولكنك لم تشرح لنا ماذا عنيت بذلك ؟ .

ك : الحق أقول لك ، دى كانت نكتة ، ولكنك أكيداً .. أعنى أن من الواقع عندما تتبوأ مركزاً سامياً ، فإن حياتك الاجتماعية تنمو وتتكاثر بما لا يتكافأ مع ميزاتك الحقيقية .

ص : هل راق لك دور راقص « السوينج » ؟ .

ك : لم تصدر منى أى شكوى من هذا الدور . ولم أبذل جهداً جاداً في الإقلاع عنه ( كل هذا إشارة إلى الابتذال في حياة المتحدث الاجتماعية ) ؟ .

ص : ظهر موضوع انتقاد يمس المبالغ الطائلة التى عرضت عليك ، وعلى بعض رجال الحكم بعد مغادرتهم له . ما رأيك في هذا النقد ؟ .

ك : « أول رايت » [ طيب ] ولكنى أفكر بأن المرء ملزم بالتفكير في أنه

خرج مديناً إلى آذانه من جراء القيام بخدمة عامة . وحتى الآن فإن قدرًا عامًا من دخلى يصرف في سبيل التحفظ على أمني ، ويجب ألا يؤثر هذا الصرف على أسلوب معيشتي .

ص : تعني أثره في تخفيض مستوى حياتك ؟

ك : أى نعم ، بمعنى ألا فائدة لى في هذه التكاليف . ثم لاحظ أنه ليس شذوذًا إذا كتبت الشخصيات العامة مذكراتها عن حياتها في الحكم . والواقع أن كل رؤساء الولايات المتحدة وأغلب سكرتيرى الدولة نشروا مذكراتهم .

ص : هل تخطط لهذه المذكرات أن تتألف من مجموعة أفكار أو أن تجيء سردًا لوقائع تاريخية ؟

ك : الأمل أن تجيى تاريخًا جذريًا ، أكثر منها تقديم صور قلمية موجزة ( فنيات ) . فبطبيعة الحال ينبغي ألا يتكلم الكاتب عن أمور أو أعمال لم تبدأ فعلا ، ولكنى أود إيضاح العوامل التى أدت إلى القرارات - أقصد العوامل الدولية والقومية ، الضغوط الديوانية ( البيروقراطية ) والمؤثرات التى تجيى من الشخصيات ، ما كان المقصود بلوغه وما انتهى إليه فعلا ، مما يجعل الناس تقبل على قراءته في فترة من فترات المستقبل ، لا رضاء عنه ولكن فيما يعنى أن ذلك كذلك .

ص : قيل بأننا في حاجة إلى « كينز » سياسى ( اللورد كينز المفكر الاقتصادى الذى أنقذ العالم من أزمتة الطاحنة في آخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ) ليحلل لنا ورطتنا المعاصرة . هل تكون أنت هذا الرجل ؟ .



ك : إنه لغرور غير مصدق أن يزعم إنسان هذا قبل أن يكتب سطرًا،  
وإنها لمن سخریات القدر أن يذكر الناس كينز في اللحظة التي لم تعد  
المشاكل التي واجهها مسيطرة.

ص : سؤال قد تشاء أو لا تشاء الإجابة عنه، ولكنه يختص بشخصيتك  
ذاتها: هل كنت رجلاً عصبيًا في معاملتك لمعاونيك، أعني رجلاً  
جياش العاطفة، إنسانًا تصعب مجاراته وإرضاءه؟

ك : لست أفضل القضاة حكمًا على شخصيتي. والواقع أن جميع معاوني  
تقريبًا ظلوا معي السنوات الثمان مدة عملي كسكرتير دولة (وزير  
خارجية) وأغلبهم غدوا أصدقاء حميمين. وفي ظني أن الصورة التي  
ظهرت للناس كانت من صنع أناس خدموا معي نحو عام في بدء  
عملي بواشنطن، وجعلوا من هذا التصوير مصدر كسب لهم. ولم  
يتنبه الناس المعاونون الذين لبثوا معي ثماني سنوات، وهم الذين  
ألفوا مجموعة من أحسن الجماعات تضامنًا، وفكرًا، مما ندر أن تمتع  
به موظف كبير طوال خدماته. أعتقد أن دور رئيس مؤسسة، هو  
الإيحاء لمعاونيه بأن يؤدوا أعمالاً لم يعرفوا أنها في مكنتهم. وأنتك  
لقادر أن تستأجر الخبرة التقنية، أما ما لا سبيل إلى استئجاره فهو  
القدرة على تجاوز الإطار المعهود. وهذه عملية يمكن أن تكون مؤلمة.  
إلا أنه لا يحكم الناس على شاغل وظيفة عامة من ناحية  
إجراءاتها الروتينية ولكن بإحساسهم في النهاية بالنتائج، لقد تأثرت  
جداً من صداقة معاوني، وتكريسهم لعملهم، ولست أدعى أنني  
كنت سهل التعامل. لأن وظيفتي كانت سهل التعامل. فقد كانت  
للدفع والإيحاء. لا للمكافأة والإرضاء، وأغلب زملائي المباشرين  
غدوا أصدقاء العمر.

ص : جاءك رهط من زملائك في جامعة هارفارد يحضونك على الاستقالة ،  
 وكان هذا في مطالع خدمتك من حوالى ١٩٧٠ فيما أظن .  
 ك : فى مايو ١٩٧٠ فى أثناء أزمة كامبوديا .  
 ص : هل كنت على وشك الاستقالة فى أى وقت خلال ثمانى سنوات  
 عملك ؟ .

ك : نعم . فى مرتين . كنت فعلا معترماً على الاستقالة .  
 ص : لماذا لم تستقل إذن ؟ .  
 ك : إذا استقلت فجزاؤك المنشآت لثلاثة أيام . ولكنك تفقد الفرصة فى  
 تشكيل الوقائع على المدى الطويل . وعلى الشخصيات العامة أن  
 تقرر متى تقدم استقالتها ، وعلى أى أساس ، مع التأكد من  
 ألا يكون هدف الاستقالة مجرد الاعتداد بالنفس ، وإرضاء الذات .  
 أو محاولة بارعة لتأمين مستقبل الشخص .

## ذكرى من دنيا الله الواسعة

تسعة أشهر على ظهر السفينة «مباحث»، تجوب بحار الشرق (الأحمر والعربي والهندي) تشارك في أعمال البعثة البريطانية التي تحمل اسم «السير جون موري»، تخليداً لذكرى هذا الرائد الكبير من رواد علوم البحر. هذا والسفينة تحمل في مكانه المعهود عليها الرائع بخضرته، وهلاله ونجومه وترفع شريطاً أحمر على الصاري إشارة إلى أنها تضيف بعثة بريطانية، والموانئ والمرافئ التي دخلناها كانت كلها في ذلك الزمان البعيد (١٩٣٣ - ١٩٣٤) تدخل في نطاق الأغنية المشهورة «احكمي يا بريطانيا من طرق الاستعمار اللولبي».

أسلوب العمارة الحديثة فيها لا يتغير في مرفأ أو ميناء عن آخر: خليط من العمارة الفكتورية مع لمحة من الفن المحلي، والحياة الاجتماعية منها بريطانيا أو متأثرة بها.

أحاديثنا أغلبها بلغة الضيوف، وإن تعلموا غير قليل من كلامنا، والطعام إنجليزي قح، يطهوه طباط مصلحة خفرا لسواحل (صاحبة السفينة)، إلا في شهر رمضان إذ حرص الضباط والمهندسون المصريون ورجالهم على تموين السفينة بالخضر والفواكه والمكسرات الأفريقية، من سوق ممباسة الأهلى وذلك قبل حلول الشهر الفضيل. طبعي أن أحس بالملل فطبيعة الشباب كلفة بالتغير، فلا تعجب أن

يكون طعامنا في تلك الموانئ والمرافئ: عربيًا محليًا، أو هنديًا، أو زنجباريًا، أو سرنديبيًا.

إلى أن عبرنا خط الاستواء إلى جزيرة زنجبار، ومنها خضنا أطول عبور عرضي، وهو الثاني للمحيط الهندي إلى كولومبو، عاصمة جزيرة سيلان (سرى لنكا حالا)، وكان على السفينة البخارية أن تتوقف يومًا أو يومين عند أرخبيل سيشيل، لتموينها بحمل إضافي من الفحم. وصلنا بليل أمام بورتوريكا العاصمة، وفي الصباح الباكر اقتربنا إلى موقع الرسو بالمخطف وأشرفت على سيشيل منفى سعد باشا وصحبه، وطربت نفسي بشعور ابن ثورة ١٩، وبالجبال الاستوائية، والمرتفعات الخضراء التي تلمس أطراف السحب الواطئة، فيما يعرف بمناطق «الدولدرام»، وبأسلوب في العمارة يخالف لكل مما شهدناه طوال تجوالنا حول بحر الهند والبحر العربي، حذرت أمر ذلك الأسلوب من الصور التي رأيتها من قبل لأسلوب البناء وتنظيم المدن بالمستعمرات الاستوائية الفرنسية، وسكانها الفرنسيون المولودون فيها من أصل فرنسي غير مهجن، ويعرفون «بالكريول»، أسلوب يجمع بين الرقة والفانتازيا، والزخرف والتوافق بين البيئة والجو الحار.

أول من قابلت من سكان سيشيل كان طبيب الميناء والحجر الصحي، قدمت له السجل الطبي شهادة بسلامة ركاب السفينة صحيًا، ودعاني لتناول طعام الإفطار معه بمستشفى المدينة، ولزيارة أقسامه. وفيها انبهرت بجمال مريضاته «الكريول»، وزميلاتهن السود والسمر بلون القهوة واللبن.

سحرتني مدينة بور فكتوريا بجنتها الاستوائية، وجاداتها الفسيحة

ونظافتها وأناقتهـا . وقفت أشاهد خروج الصبية الصغار من مدرستهم لفترة الظهر، سمر وسود . سألت أحدهم عن اسمه وما يدرس فأجابني بالفرنسية، ونطق اسمه زان ( جان ) لوران، وحدثني عن مدرسته . سألته بأية لغة تتكلم؟ أجاب « زوبال كيول » أتكلم الكريول .

أنا: « لا أعرف لغة اسمها ذاك، إنك يا ابني تتحدث بالفرنسية .  
أجاب « زوبال كيول » .

وعرفت أن مؤتمر فيينا الذى أنهى إمبراطورية نابليون، وأعاد حكم البوريون، قضى باستيلاء بريطانيا على جزر سيشيل، من أملاك فرنسا، وبإبقاء اللغة الفرنسية للأهلين، وتبقى رسمية هى والإنجليزية مدى مائة عام ( ١٨١٥ - ١٩١٥ ) . وفهمت معنى غلمان سمر سود يتكلمون لغة لا يسمونها فرنسية، وهى فرنسية مع ذلك، وحدثنا مع أهل الجزيرة كان بها . وكانت لغة صاحب الفندق الذى تعشيت عنده فى مستوى لغة أساتذة السوربون، سألته عن سفره إلى فرنسا وكيف يفسرون لغته، غير المعتادة بين عامة الشعب فى باريس قال: حسبونى فرنسيًا من كندا .

وتناولنا الغداء: رئيس البعثة الإنجليزى، وقومندان «مباحث» الأسكتلندى، وضابط البحرية الملكية البريطانية «الكوماندوز ايان فاركسون» وأنا، على مائدة الحاكم العام البريطانى . وهناك رأيت لأول مرة الأناناس الطازج يتوسط المائدة، فيما يشبه زهرة كبيرة ضمن باقة استوائية تعلوها زهرة المانوليا . نسيت شكل قصر الحاكم من خارجه وداخله، والغالب أنه كان بريطانى النمط، مثل الطعام فيما عدا فواكه المنطقة الحارة .

لماذا أبدى وأعيد من حياتى فى منتصف العمر . لأن جاذبية أورليان

الجديدة، استقرت في نفسى منذ رحلتى الأولى إلى الولايات المتحدة حين عبرت بلادها من الشاطئ الشرقى حتى الشاطئ الغربى. فمهما تميزت سان فرانسيسكو بجوها، وسحرها وروعة طبيعتها وكباريها المعلقة عبر خلجانها، وعجبية حيها الصينى، فإن كل ما رأيت في البلاد التى زرتها هو أميرىكا الحديثة فيما تصورناه، وعرفناه من أسلوب حياتها وأنماط عماراتها ومن آدابها وصورها وأفلامها.

كان بودى أن أرى عاصمة الجنوب، فى لويزيانا القديمة، التى تحمل اسم الدوق فيليب دورليان الوصى على العرش بعد وفاة لويس الرابع عشر ( ١٧١٥ )، انشأها على بعد ١٦٠ كيلو متراً إلى الشمال الغربى من دلتا المسيسيبى، جان - بابست لوموان، سيد بانفيل، فيما بين آخر عام ١٧١٧ ومطلع ١٧١٨؛ بناء على تعليمات حكومته فى باريس، وعلى رأسها تسمية المدينة الجديدة باسم الوصى على العرش. واختار سيد بانفيل كفراً هندياً قائماً فوق ربوة تطل على منعطف شبه دائرى لنهر المسيسيبى، أعطى لشكل المدينة الأصلية صورة الهلال، وتعرف لورليان الجديدة باسم « المدينة الهلال »، خطط لها مهندسان ملكيان، وقام بمنشأتها عدد هام من المهندسين الفرنسيين.

وبيعت ولاية اللويزيانا الفرنسية إلى الولايات المتحدة عام ١٨٠٣ تحت حكم القنصل الأول - بوناپرت، وتوماس جفرسون رئيس الولايات المتحدة الثالث ( ١٨٠١ - ١٨٠٩ ).

كتب المصور الانطباعى الكبير « ادجار دوجا »، إلى صديق فنان بياريس من مدينة أورليان الجديدة حيث قضى ردهاً من الزمن فى زيارة أقربائه ( أكتوبر ١٨٧٢ - فبراير ١٨٧٣ )، وصور هناك لوحاته المشهورة



( سوق الأقطان ) بأورليان الجديدة وهى التى رأيتها بمتحف مدينة « بو »  
بالجانب الغربى لفرنسا أمام جبال البيرنيه ، وصورة لقريبته الضريبة  
استيل موسون دوجا ( فى متحف اللوفر ، ومتحف أورليان الجديدة ) قال :

( فرنسا الحلوة ما فتئ لها ربيع قدم فى اللويزيانا - فيلات ذوات  
أعمدة ، بأساليب عدة . دهانها أبيض وسط رياض المانوليا والبرتقال  
والموز - زنوج فى ثياب رثة - أطفال بيض بين أذرع سود ، عربات تجرها  
بغال - مداخل السفن البخارية ترفع رأسها فى سماء آخر الشارع الكبير .  
ذلك بعض اللون المحلى ، وكل شىء جميل فى دنيا الناس - لو جاء  
« مانيه » إلى هنا لرأى أشياء حبيبة ، وحتى أكثر منى ) .

وصلت بالطائرة من شيكاغو إلى « نواو رلينز » وتوقفنا دقائق فى  
أطلنطا وعصف الجو بأشد ما عرفت فى رحلات طيرانى منذ بدأتها ( فى عام  
عبور لندبرج الأطلانطى وحده من نيويورك إلى باريس على طائرته  
الصغيرة سبيريت أوف سانت لويس ١٩٢٧ ) ، عصف فيما بين أطلانطا  
وأورليان الجديدة . وكانت الشمس قد غربت قبل وصولى ، ولكنى مطمئن  
إلى حجرة حجزت لى بفندق ( بوريون - أورليان ) بواسطة سيدة سمحاء  
أنيقة ، أميركية من أصل بولندى ، صاحبة ومديرة مكتب سفريات ، بعد  
حديث ممتع أدركت منه نوعية المسافر . ركبت التاكسى مع بعض رفاق  
السفر ، نزلوا عن آخرهم بفنادق المدينة الحديثة : عمارات تنطح عمارات  
على النمط المعهود ، وبقيت وحدى بالتاكسى ، حتى غادرنا الأحياء  
الجديدة إلى ما يعرف « بالمربع القديم » « لوفيو كاريه » ، أى الحى الفرنسى  
الذى احتفظ بطابعه على ضفة الميسيبى . أمامى وأنا أكتب خريطة هذا  
المربع المقسم إلى مربعات تمثل بلوكات بيوت بين شوارع مستقيمة ،

تعارض عمودياً. وهى الخريطة التى صحبتنى فى تجوالى بعد ظهر اليوم  
التالى لمشاهدة المباني الأصلية، المبنية عليها بأرقام. شوارعها تحمل أسماء  
فرنسية ( بوريون - تولوز - سان لويس ... إلخ ).

انتهيت من تجوالى إلى ميدان جاكسون ( اندرو جاكسون )، جنرال  
استرجع المدينة من الاحتلال البريطانى فى حرب ١٨١٢، ثم انتخب رئيساً  
سابعاً للولايات المتحدة ( ١٨٢٩ - ١٨٣٧ ). أمام كاتدرائية سان لويس.  
عبرت خط السكة الحديدية إلى ضفة الميسيبى. وقد وقع فى مقالاتى خطأ  
مطبعى واحد، حيث كتب اسم هذا النهر « الموسيوسيبى ». تبسّمت للخطأ  
مغتبطاً به. لأن اسمه أصلاً عند الهنود الحمر ( ميسى سيبى ) ويعنى « الماء  
الكبير » وما بين ( الموسيو والميس ) ... فركة كعب.

لبثت وقتاً طويلاً حتى قبيل الغروب أتأمل « الموسيو سيبى » وهو  
أعرض من نهرنا العظيم ضعفاً. وتذكرت متحسراً النيل فى مده، حين  
كانت عظمة فيضانه تجل عن الوصف، وخاصة إذا وقفت على حافة  
الشاطئ واستمعت إلى هدير مياهه فى لون الطوب الأحمر.

وقررت أن أركب الميسيبى فى يومى التالى. على ظهر السفينة  
البخارية الكبيرة ذات الرفاص الخلفى الكبير واسمها « ناشيز »، من  
رصيف شارع نولوز بميدان جاكسون، وقضيت فوق سطح المياه المصفرة  
ثلاث ساعات أواجه الضفتين، وأشاهد الكوبرى الهائل عبر النهر،  
وأذكر حياة الكاتب الكبير « مارك توين » الشاب، يتدرب على مهنة  
الإرشاد العويص وسط مياهه، وفوق قبعاته المتحركة، فيما بين « سان  
لويس » و « نواورلينز ».

ولا أعود إلى نشأة موسيقى « الجاز » فالمدينة الساحرة تحفل بالبهجة

والهيسة، والمتع الحسية. لأن من يقضى نهاره متأملاً عمائر القرون السابقة، لا يجد متسعاً من الوقت، ولا يتيقظ إحساسه لسماع تلك الموسيقى المزعجة.

ربما كان مرأى المدينة العتيقة شيئاً خارقاً، فلعلها المثال الوحيد في تلك البلاد الشاسعة تشعر فيه بنبض التاريخ، إلا أن تذهب كما ذهبت وكتبت فيما سبق من فصول عن زيارتي لمدينة بليموث على بعد أميال من مدينة بوسطن، للموضع الذى نزل به «الآباء الحجاج» على أرض العالم الجديد ذات يوم من عام ١٦٢٠. وقد بلغوا مهجرهم المجهول هرباً من ضيق الأفق العقائدى فى بلدهم.

«المربع القديم» فى المدينة القائمة على منعطف نهر المسيسى، تدرك فيه معنى العتاقة، وأنت تتأمل جمال العمارة التى تجمع بين الجمال الفرنسى والبهو (الباسيو) الأندلسى، وكل تلك الطنف الحديدية المشغولة كالدانتلا تحوط الطوابق بطولها وعرضها واستدارتها.

وإذا كان البلد رطباً، حاراً و «يا مطرة رخی رخی»، فلا مناص من أسقف اردوازية شبه مسطحة، ولكنها مخفية بحيث تتراءى لك تلك البيوت القديمة، وكأنها بيوتنا المصرية بأسطحها المنبسطة.

## فى عالم مرشدى السفن

كان النيل عندنا، أهل القاهرة يعرف « بالبحر »، وفيها أذكر وردت فى أسماء جاداتنا « شارع البحر الأعظم »، واسم نهر المسيسىبى عند أهل أميرىكا الأصائل ( الهنود الحمر ) « الماء الكبرى »، وكان إحساسى ببحرى الحلو، وقد عشت على شاطئه منذ صباى، إلى اليوم، ومعرفتى بجبروت فيضانه مصدر حزن دفين، وأنا جالس على مقعد يطل على ضفة المسيسىبى، أتأمل حركته واتساعه وأفكر بجبروته هو أيضًا، إلى جانب بحرى الذى قيد بأغلاله، وصار حبسًا.

وذكرتنى مشاهدة المسيسىبى لأول مرة من مدينة أورليان الجديدة بالكاتب الأمريكى أول محرر لأدب بلاده، من سلطان أدب انجلترا الأم، فما أن عدت إلى مستقرى حتى أخذت فى تقليب صفحات بعض مؤلفاته، أطلع ما يعن لى مما سبقت إلى قراءته فى صباى ووقفت عند كتاب له أتأمله وأغوص فى فصوله وعنوانه « المسيسىبى فى الأزمنة السابقة ».

لأن « صمويل كليمانس » المولود فى قرية فلوريدا بولاية « الميزورى » عام ١٨٣٥ انتقل مع والديه قبل بلوغه الرابعة إلى بلدة « هانيبال » على ضفة المسيسىبى اليمنى. نشرت الخريطة أمامى أبحث فيها عن موقع تلك البلدة حتى وجدتها على مبعدة نحو ثمانين ميلا إلى الشمال من مدينة سان لويس فإذا تابعنا النهر فى اتجاه ( المصب ) طالعنا أسماء مصرية لبعض

البلاد . فهي « كايرو » « ومفيس » من البلاد المطلة على النهر العظيم .  
يجب أن نفهم الحيرة التي لاقاها المهاجرون ، المستعمرون ، فاتحو  
الطريق إلى أقصى غرب شبه القارة ، في تسمية بلدانهم الجديدة ، تبدأ  
أكواخاً من الخشب . فقد يلجئون إلى اسم الكفر أو المحلة عند السكان  
الأصليين وهم الهنود الحمر . وذلك لم يكن ميسوراً دائماً ، وقد يضطرون إلى  
استعارة أسماء من بلاد العالم القديم . فعندهم باريس ( بلدة صغيرة على  
مقربة من نهر الأوهايو ) وبرمنجهام وكامبريدج ، ودوفر ، ودرهام ،  
وهانوفر . وكان اسم نيويورك قبل الإنجليز ( نيو امستردام ) ، فاستعار  
المستعمرون الجدد اسم مدينة يورك من إنجلترا .

إن أهم حقيقة في حياة « صمويل كليمانس » الشخصى و « مارك  
توين » الكاتب ، هي بلدة هانيبال بموقعها على المسيسيبي . « واسم القلم »  
هذا سيتضح فيما يلى ، فهو مجرد نداء بحارة السفن النهرية القائمين على  
سير أغوار المسيسيبي ، تفادياً من الجنوح بسبب تغير قيعاته . ومن بين  
نداءات في مواضع انخفاض مياهه ، وأوقاتها بسبب تغير قيعاته . ومن بين  
نداءات قياسى الأعماق « مارك » أن تنبه ، خذ بالك أو لاحظ ، أو سجل  
« توين » وهي في لغة الأميركيين تعنى زوجاً من الشيء وعلى سطح مراكب  
المسيبي تعنى « قامتين » ( زوجاً من القامات ) .

بلدة هانيبال تجمع إلى خصائص المحلة الريفية ، ميزة الاتصال الدائم  
بالعالم الخارج عن طريق النهر الملاحى الأكبر بالرفاصات البخارية  
الكبيرة ، وغيرها تحمل تجارة شبه القارة من ولاية ويسكونسن في الشمال  
وما خلفها حتى أورليان الجديدة إلى أقصى الجنوب ومنها إلى خليج  
المكسيك وتقف تلك السفن ببلدة هانيبال أياماً أو ساعات .

وهانيبال على مقربة كما قلنا من سان لويس مفتاح الطرق إلى سانتافيه أو أوريجون أو كاليفورنيا .

بدأ صامويل كليمانس حياته العملية صبيًا في مطبعة ، وكانت هذه المهنة فاتحة هامة لأدباء أميركا فيما بعد . فقد أسس مارك توين دار نشر أثرت أم انتهت إلى بيوت نشر الأدباء ( والترسكوت وأونوريه بلزاك ) إلى التفليس .

وفي سن العشرين كان مارك توين قد تفرس بالأدب الإنجليزي الكلاسيكي ، وطالع التاريخ ، وعمل في الصحف مخبرًا وكاتبًا يمزج الجد بالهزل ، والتنكيت بالتبكيث ، فيلقى بالنكتة التي تضحك على الرغم من وخذ قرصتها .

في عام ١٨٥٧ بدأت « صبيته » على مرشدى سفن المسيسيبي وفي هذا يقول :

« في مطالع حياتي كان طموحي وطموح أقراني في بلدة هانيبال على الشاطئ الغربي للمسيبي هو أن تكون « رجال النهر » فوق رفاصاته البخارية . نعم كانت لنا تشوقات عابرة من أنواع شتى . فما إن رابط سيرك في ديارنا فترة ثم غادرنا ، حتى نشواق جميعًا أن تصبح « بلياتشوات » . وعندما تمر بنا جوقات الأدبانية السود ، ونشهد تقاليعهم وصعلكتهم ، يتوق كلنا إلى حياة « العز في النقل » فالصعلكة وإن رضى الله عنا فسوف يسمح لنا سبحانه وتعالى أن نتحول إلى قرصان بحار . كلها هذه تطلعات سرعان ما يخبو ضياؤها ، إلا التطلع إلى شغلة مرشدى سفن المسيسيبي . وبلدة هانيبال تظل في غفوة إلى أن يهل في البعد عامود دخان غامق فيتصايح الزنجى الفحل ، منادى البلدة بصوته الراعد « باخرة قادمة » ، وإذا بالكتبة والمسيبين ، والتجار وذوى المصالح يفيقون



من نعاس القيلولة ويخرجون من الشقوق، هم وعربات النقل، وجواسق البيع والشراء، الكل يهرع إلى رصيف البلدة، ويتطلع إلى عجيبة الأعاجيب، وكأنهم يرون الرفاص البخارى الكبير لأول مرة.

وما أشبه وصفه هذا انطباقاً على ما كان يحدث ببور سعيد في أيامها الخوالى - كما عرفتھا. كانت تصحو في بهمة الليل، أو في مطلع الفجر أو في القيلولة ويتجه أهلها كافة كل حسب عمله ومهنته وآماله وتطلعاته إلى المرسى أمام مبنى شركة القنال الدولية « كذا » يقدمون أنفسهم على استعداد للخدمة في البر، ويندفع البمبوتية بفلايكهم يزعمون من فوق سطح الماء لتصل كلماتهم باليونانية أو الإيطالية أو الإنجليزية إلى أسماع ركاب السفينة العابرة.

ليس من السهل اختيار منظر من المناظر التي عاشها صبي المرشدين، صمويل كليمانس وقد وقع اختياري على هذا المنظر: كنت لا شيء ( صفرًا ) في جماعة المرشدين. فلم أبلغ حتى أوضع مركز في إدارة عجلة الدومان [ السكان ] ... وعند الغروب قرع مستر بكسبى جرس السفينة ثلاث مرات إشارة إلى الرسو، وخرج القبطان من صالونه ونظر إلى مستر بكسبى متسائلاً فقال له هذا:

« سنبقى هنا طوال الليلة يا قبطان » وأجاب الربان « طيب يا سيدى » وقد كان .. ورابطنا لقضاء الليل وإنما كان شيئاً لطيفاً حقاً أن يصنع المرشد ما شاء وراق له، دون أن يستأذن ربان السفينة.

« والمرشدون لا يتهيبون كثيراً » أقاصير قاع النهر في رحلة الصعود ( الاتجاه شمالاً ضد التيار )، لا يجبرهم أمر على التوقف، سوى الضباب. على حين أن السفر هبوطاً مع التيار شيء آخر.

فالسفينة لا حول لها ولا قوة في تيار قوى يدفعها من الأدبار. ولهذا السبب لم يكن معتاداً أن تهبط السفن مع التيار في الليل، عندما ينخفض مستوى الماء فتصبح الأقاصير عوائق خطيرة.

كان أمامنا أمل واحد، وضعيف، لبلوغ بلده «كايرو»، هذا إن استطعنا الوصول إلى «جزيرة البرنيطة» (هات أيلاند) قبل مقدم الليل. لأن عبور المنطقة والاستدارة حول رأس الجزيرة يمثل خطورة ومشاق عظيمة. أما بعد ذلك فالإقلاع ميسر في ماء غير قصير وهذا يفسر خروج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت، والاهتمام بفك «جفر» السرعة. وكانت «جزيرة البرنيطة» موضوع الحديث السائر طوال اليوم العصيب ينفسح فيه الأمل أنا ويضيق أنا آخر حتى يوصد بابه.

لم يكن المرشدون الإضافيون ينتظمون في «ورديات»، وكان كل واحد من مرشديننا الكثيرين يقوم بقيادة السفينة في مكان من النهر عبره مؤخرًا في رحلة الصعود شمالاً، فهو بمعلوماته الحديثة أعرف بحال المنطقة، ولكن الآخرين يبقون في «قمرة» المرشدين تحت الطلب.

وعند اقتراب المغرب تسلم مستر بكسبي عجلة «الدومان»، وفي الدقائق الثلاثين من تسلمه أمسك كل أفراد السفينة بساعاتهم في قلق يخيم عليه السكون. وأخيرًا نادى أحدهم: شوفوا يا أولاد أهى جزيرة البرنيطة قدامكم ولا يمكن عبور مياها «وهنا أقفلت ظروف ساعاتهم بطرقة واحدة وأخذ الجميع يطلقون الزفرات (هذه ساعات أجدادنا نحن الشيوخ، عرفتھا غلامًا).

اختفت الشمس تحت الأفق والسفينة تواصل السير، ويتبادل الجميع نظرات الاستغراب، شد مستر بكسبي حبل الجرس، ودق مرتين فانتشر

الرنين في تحية الليل ، وبعد هنيهة دق مرة ثالثة ، وتبعه صوت « الناضور »  
للنوبتجي من الكوبرته العليا صائحاً : إلى قياسى العمق سنجق وقياسى  
العمق سقالة .

صاح رجال سير الفور ، ونقل كلامهم المبلغون من الكوبرته العليا :  
« سجل ثلاثاً » نقص الموقع إلى قامتين ونصف ، فألى قامتين وربع « مارك  
توين إلا ربعا » ( سجل قائمتين إلا ربعا ) ، ومن هذا النداء اتخذ صمويل  
كليمانس اسم القلم .

وشد مستر بكسبى حبلى الجرس ، فاستجابت له خشخشه وصليل من  
غرفة الشرك ( الآلات ) في أعماق السفينة . وهبطت السرعة ، وبدأ البخار  
يصفر من صنابير الضبط . وصوت قياسى العمق مستمر في نداءاته  
لتسجيل النتائج أولاً بأول ، وكأنه صوت القدر الداهم في الليل الساجى .

كل المرشدين في تلك اللحظات كانوا مركزى الأنباء ، وعيونهم محددة  
البصر وإذا تكلم الواحد منهم فبصوت خافت لم يك بينهم رجل هادئ  
مرتاح ، إلا مستر بكسبى . فقد ترك دولاب ( الدومان ) ليضع قدمه على  
شعاعة من شعاعاته .

وبينما كانت السفينة تتحرك تبعاً لعلامات غير مرئية ( لى أنا ) وكأننا في  
بحر واسع كئيب . كان مستر بكسبى هو القائم وحده بتثبيت السفينة في  
أوضاعها المختلفة ومن خلال اللفظ الكلامى غير المسموع تماماً ، أمكن  
تعين جملة مترابطة من آن لآخر مثل : « آهى تمضى فوق الأقاصير في  
آمان » .

وبعد السكوت المجلل يقول صوت مكتوم « إنها ورب السماء تهبط  
بفشها ( بمؤخراتها ) في آمان » .

«وها هي ذى في طريقها السوى تحقق العبور» وآخر مهمة كان عملاً رائعاً.... والآن: توقفت الآلات تماماً: فواصلت السفينة السير يدفع التيار، وكان هذا الخضوع للتيار أسوأ السوء تنقبض له القلوب. ثم اكتشفنا أسوأ ظلام مما يجللنا به الليل.. كان رأس جزيرة البرنيطة، والسفينة يدفعها التيار إليها مباشرة دخلنا في ظل الجزيرة الأكثر كثافة، وبدأ الخطر داهماً لدرجة أنى أشرفت على الاختناق وجلا ورهبة، وبنفسى إحساس قوى يدفعنى إلى عمل شىء لإنقاذ السفينة.

ولكن المستر بكسبى ما برح واقفاً إلى عجلة «الدومان» صامتاً، متحفزاً كاهراً، وجمع المرشدين واقفين خلفه كتفاً إلى كتف. وصوت هامس يقول: «ستعوق السفينة فى العبور». وأصوات القياسيين ترتفع معلنة «اقتراب القاع» ثمانية ونصف «ثمانية أقدام... سبعة و...».

مستر بكسبى يتكلم فى صوان البوق الموصل لغرفة الشرك عن طريق ماسورة ويقول بصوت حام: ستاند باى. (خذ أهبتك توأ)، فيرد المهندس من قاع السفينة (تمام، تمام يا فندم) (سبعة ونص.. سبعة.. ستة.. و.... مسسنا القاع) وحرك مستر بكسبى أجراساً كثيرة، وصرخ فى صوان البوق «والآن أعط السفينة كل قدراتها، أعطها حتى الثمالة» ثم التفت إلى شريكه المرشد «اخفس بها الأرض، اخطفها، اخطفها» والسفينة تصر صريراً، تضرس له الأسنان.

طحنت طريقها على شفا الكارثة. لحظة واحدة هنيهة هائلة.. وتمكنت من العبور. وكانت صيحة جماعة المرشدين خلف المستر بكسبى مما لم ترتفع يوماً إلى درجة تفكيك مفاصل السقف فوق «قمرتهم»

أو برطوزهم، كما يقول بحارتنا ) لم نلق صعوبة بعد ذلك . وكان المستر بكسبي يطل تلك الليلة الليلاء، وانقضى زمان غير طويل بعد ذلك حتى توقف التحدث بما كان من رجال النهر .  
وكان آخر ما سمعت من ملحوظات : تحية وإطراء من شخص يخاطب نفسه .

« وحق ظلام الموت، إنه لمرشد باهر » .

## توماس جفرسن.

### الرئيس الثالث للولايات المتحدة

جاء في وصف مؤرخ أميركي للرئيس القليل جون فتزجيرالد كنيدي أن كان فيه من قوة شكيمة تيودور روزفلت. ومن فرنكلين ديلاانو روزفلت، قدرته على الوصول إلى قلوب الجماهير. ثم أضاف إلى ذلك اهتمام كنيدي بالفنون والآداب وأهلها، مع لطف المعاشرة الاجتماعية. وكان هذا سجية فيه، مثلما كانت لتوماس جفرسن. وقد تجيء هنا إشارة مستورة إلى الندرة في هذه السجية لدى رؤساء الجمهورية الكبرى في العالم الجديد.

وربما نسي القراء تيودور روزفلت، وهو الذي تولى الرئاسة عام ١٩٠١ بعد مقتل الرئيس ماكنلي على يد فوضوى. وكان روزفلت من الحزب الجمهورى، ديموقراطى النزعة، مقبلاً على الإصلاح، مؤمناً بأن الرئيس أقرب إلى قلب الجماهير من الكونجرس. وبرغم أنه من المحافظين، لا يلجأ إلى وسائل ثورية لتغيير النظام الاقتصادى، فإنه كان يعتمد إلى تنظيفه من المساوىء التى اعتورته. ولهذا عزم على إثبات أن الحكومة أعلى يداً من كل رجال الأعمال، مطالباً بتحقيق العدالة لرجل الشارع بالحد من سلطان أولئك الرجال. وعقب انتهاء رياسته، قام برحلة حول العالم، زار فيها مصر، ووقف بأسوان يثنى على الاحتلال البريطانى، فى إبان أزمة الخديو عباس الثانى مع المعتمد البريطانى، بعد أن



سمح الأمير لنفسه بتوجيه النقد إلى نظام الجيش المصرى القائم عليه ضباط بريطانيون. وتولى أحمد شوقي، أمير الشعراء الرد على روزقلت بخريدته الضادية، أشاد فيها بأمجاد التاريخ المصرى، موجهًا الكلام إلى الزائر المعتدى:

أيها المنتحى بأسوان دارا كالثريا يكاد أن ينقضا  
وسواء عرف روزقلت بأمر تلك القصيدة، أم لم يعرف، فقد نزلت بردًا  
وسلامًا على قلوب أهل الكنانة. وكانت من أول ما عرفت، وأحببت،  
وحفظت من قصائد الشاعر المغلق.

أما قريبه فرنكلين روزقلت، فهو الذى قاد الشعب الأمريكى بتؤدة  
سياسية لينضم إلى الحلفاء فى محاربة عصابة المجرمين الذين هددوا البشرية  
جمعاء بمحاولة القضاء على الحريات، وقد وأدوها فى بلادهم، ومحوها فيما  
احتلوه من أصقاع فى أوروبا وأفريقيا وآسيا.

يبقى الرئيس الثالث توماس جفرسون الذى ورد ذكره فى هذه  
الفصول. وأعترف خجلًا بأننى - قبل زيارة الولايات المتحدة، لم أك  
أجهل هذا الاسم فحسب، بل كانت معرفتى بتاريخ تلك البلاد، أقل من  
القليل، فيما لا يزيد عن الإلمام ببعض سيرة جورج واشنطن، وحرب  
الاستقلال، وبنقاط الرئيس وودرو ويلسون الأربعة عشرة، وأثرها فى  
تحرك مصر، عقب إعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى، نحو المطالبة  
بالاستقلال التام. واقتصرت معرفتى على أعلام الأدب الأمريكى،  
وإطلاعى على ما أفادنى من المؤلفات الهامة فى تخصصى الطبى، ثم  
العلمى، وفى كلفى بفن الموسيقى وعلومها. وكل هذا لا يعنى أكثر من  
المعرفة على البعد للمنتجزات الأمريكية فى العلوم والصناعات والزراعة

والاختراع، معرفة تقدير، يمكن تقييمها على علم بالنتائج، لا بمصادرها وأصولها، وقواعدها السياسية والاجتماعية. وهنا يفسر اتجاهي قبل السفر، وإبان الرحلة، إلى التعرف على الأصول الديمقراطية العظيمة، ومصادرها.

ويشاء حسن الطالع، وقد قفلت عائداً إلى باريس، أن تقيم السفارة الأميركية في أوائل سنة ١٩٧٥ معرضاً «بالجران باليه» (السراى الكبرى للمعارض)، خصصه للتاريخ الأميركي فيما بين سنتي ١٧٠٦ و ١٨٢٦، كمقدمة للاحتفالات الكبرى، المزمع إقامتها سنة ١٩٧٦ بمناسبة مئتي عام على تحرير أميركا. وقد ركزت السفارة على حياة رجلين من عظمائها: بنيامين فرنكلين المولود سنة ١٧٠٦ والرئيس الثالث توماس جفرسون المتوفى عام ١٨٢٦.. وهو الشخصية المنيرة التي جذبتني إليه وأنا أطلع التاريخ الأميركي. وعنوان المعرض «بناء الاستقلال».

كانت البلاد في مطالع تلك الحقبة مستعمرات صغيرة للبريطانيين، على صلة مستمرة بوطنهم الأصلي. وفي آخرها توحدت الولايات، وحققت التحرير التام من النير البريطاني. وكان الرجلان من أشد الناس إدراكاً وفهماً للاحتياجات الأساسية لبلادهم: فرنكلين بعلمه، وحصافته، ولباقته، وفهمه العملي. وجفرسون بالثبات على مبادئه، يدافع عنها في حماس متقد.

وجفرسن ابن ولاية فرجينيا، درس في جامعة وليامسبرج، وكان طالباً نائباً، تواقاً إلى المعرفة، فاق شباب جيله ثقافة، مع حب الخلاء، والفروسية، والسباحة برقص في الحانة، ويعزف على الكمان في صالون حاكم فرجينيا. بدأ عشريناته محامياً، وآثر اعتزال المحاماة، عقب

زواجه، واستقراره في بيته الريفى المسمى « پونتشيللو »، يفضل مشاركة معاصريه في حركات التذمر، والاحتجاج على الضرائب التى فرضتها الحكومة البريطانية على سكان مستعمراتها بالعالم الجديد - وهم بريطانيون - دون أن يكون لهؤلاء رأى، أو صوت، في البرلمان البريطانى.

ذهب إلى المؤتمر القومى العام كمجاهد مثالى، بغير طموح شخصى. أهم ما يعنيه تصحيح النظام الحكومى، وقد سبق ذلك عمله في تعديل قوانين ولاية فرجينيا، وعين حاكماً لها سنة ١٧٧٩.

وإذ توفيت زوجته الشابة، وقد أخلفته بنتين، أحس برغبة في الاختلاء بأبعادية « پونتشيللو » الواسعة. وهيهات! فقد دمرها جنود الجنرال البريطانى المكلف بالقضاء على ثورة التحرير.

وبعد أشهر من السوداوية والحزن، رضى بالسفر إلى فرنسا سفيراً لبلاده. فبهرته باريس في السنوات الأخيرة للملكية. وجاء في رسالة له قوله: « ولا أجد في الكلمات قدرة على التعبير عن إعجابى بفنون العمارة، والنحت، والتصوير، والموسيقى في هذه البلاد ».

وعقب الاستقلال، وانتخاب قائد الثورة، جورج واشنطن رئيساً للولايات المتحدة، عين جفرسون سكرتير دولة (= وزير الخارجية)، ثم اضطر للتخلى عن الوزارة، من جراء معارضة هاملتون سكرتير الخزانة (= وزير المالية). ولكنه عاد إلى العاصمة فيما بعد، نائباً للرئيس، ثم رئيساً للولايات المتحدة بعد انتهاء مدة الرئيس الثانى، جون آدمز. أوصى جفرسون في أخريات حياته بأن تنقش على قبره هذه الشهادة: « هنا يثوى توماس جفرسون، مؤلف وثيقة الاستقلال، وصاحب المبدأ القاضى بالحرية الدينية في ولاية فرجينيا، ومنشئ جامعة فرجينيا ».

والحق، أن ما أوصى به الرجل العظيم، هو أروع ما أدى لبلاده من أعمال باقية. « فوثيقة الاستقلال » كلف بها المؤتمر القومى العام لجنة من بنيامين فرنكلن، وجون آدامز، وتوماس جفرسون. وعهدت اللجنة إلى جفرسون بوضع مشروع الوثيقة، الذى وافقت عليه اللجنة والمؤتمر العام، بعد تعديلات خفيفة.

وصدر الدستور الأمريكى بعد إعلان الاستقلال بإحدى عشرة سنة. أبلغه إياه صديقه الحميم ماديسون، وكان جفرسون فى تلك الأثناء يمثل بلاده فى بلاط لويس السادس عشر. فرد على صديقه بالموافقة بصفة عامة، ولكنه أسف ألا يتضمن الدستور إعلاناً للحقوق التى تكفل الدفاع عن حريات الفرد. فقام ماديسون بوضع التعديلات العشرة الأولى التى أضيفت إلى متن الدستور. وهى المعروفة فى التاريخ الأمريكى باسم «إعلان الحقوق»، الوثيقة العزيزة لدى الأمريكيين، وموضوع اعتزازهم، ومباهاة الأمم بها. لم تكن شيئاً جديداً، فهى فى الحق تعبير صادق عن النظرية السياسية لعصر التنوير، بما يوائم الحقيقة الأمريكية.

كتب جفرسون فى إحدى رسائله إلى صديقه ماديسون: «إعلان الحقوق يعبر عن حق الشعب فى الضمانات التى يحتمى بها من تعسف أية حكومة تجبى... ولا حق لأية حكومة عادلة أن تعارض فى حق الشعب، أو أن تترك هذه الضمانات دون تعبير وتلوين».

ومن الأهمية بمكان - لأن ما يجىء يعتبر من المقومات الأساسية للدولة فى العصر الحديث - الإشارة إلى نص جاء فى هذه التعديلات التى وصفها ماديسون بالاتفاق مع جفرسون: « ليس فى إمكان الكونجرس أن يصدر قانوناً يشير إلى تحديد دين بعينه ». وبهذا النص بدأت الديموقراطية يبدأ

فصل الدين عن الدولة . وليس في هذا موضع تعجب من أبناء مهاجرين -  
« الآباء الحجاج » - ترحوا عن وطنهم لشعورهم بالحيف والجور من حكومة  
وطنهم الإنجليزى حددت مذهباً بعينه ليكون ديناً رسمياً للدولة .

ولجفرسون فضل آخر ، وهو انفتاح الولايات المتحدة على المساحات  
الشاسعة غربىً المسيبى . فمن أقواله : « إن الولايات الأمريكية في  
الشرق ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة لتلك الأراضى الواسعة » . ولم يكن  
رأى جفرسون مجرد رجم بالغيب أو رغبة متفائلة . بل كان من مصادر قيام  
بيت « مونتشللو » فوق ربوة تطل على مزارعه الواسعة في اتجاه الغرب .  
وقد ابتعث فيه ذلك الانفتاح على الغرب ، الرغبة في جمع ما يتاح له من  
خرائط ، ومدونات رحالة ، عن هذا الغرب . وجفرسون هو الذى أوصى  
بعثة علمية لاستكشافه ، أسند رياستها إلى سكرتيه لويس بعد أن زوده  
بكل الوسائل التى تعده لهذه المهمة ، وأشرك معه رحالة بحاثه اسمه  
كلارك . وتعرف البعثة باسم « لويس - كلارك » ، عادت بعد سنتين محملة  
بالمجموعات الأثروبولوجية ، والنباتية ، والحيوانية ، ومدوناتهم عنها ، وعن  
كل ما شاهدوه في تجوالهم البعيد . وبذلك مهد الطريق للمستعمرين .  
وكانت القاعدة القائمة حينذاك أن من حق المستعمرين للغرب ، عندما  
يبلغ تعدادهم في صقع ما سبعين ألفاً ، أن يضعوا دستوراً لهم ينضمون  
بمقتضاه إلى الاتحاد ، بكامل الحقوق ، أسوة بالولايات المستقرة ، على  
شريطة اشتغال دستورهم على مادة تطلق حرية العقيدة الدينية ، وترفض  
أى نوع من استعباد السود ، تجنباً لامتداد نظام العبيد السائد في ولايات  
الجنوب .

وتضاف إلى أعمال جفرسون البارزة ، صفقة شراء الإقليم المعروف

باللويزيانا ( نسبة إلى اسم ملوك فرنسا ) . وهذا الإقليم الشاسع الأرجاء ، الذى يمتد حتى « الجبال الصخرية أى الروكى ماونتنتز » ، مستعمرة إسبانية انتقلت إلى حكم فرنسا عام ١٨٠٠ . وقد بدأ الرئيس جفرسون محاولته عندما طلب من الوزير المفوض للولايات المتحدة لدى حكومة «الديركتوار» ، التفاوض مع حكومة القنصل الأول بوناپرت لشراء اللويزيانا . ولم تطل المفاوضة لأن تاليران وزير الخارجية وافق على بيعها مقابل ١٢ مليون دولار . لم يكن جفرسون قد تلقى تفويضا من الكونجرس ، بمقتضى حكم الدستور ، لإجراء الصفقة ، ولكن النجاح الذى تحقق لبلاده يسر موافقة الكونجرس دون معارضة ذات شأن .

وبهذا تضاعفت مساحة الولايات المتحدة بنحو ثلاثمائة ألف هكتار . وفى ٢٠ ديسمبر ١٨٠٢ تسلمت الولايات المتحدة من فرنسا مدينة «أورليان» ، ورفعت عليها أعلامها باسم «نو أورلينز» .

كتب جفرسون فى عام ١٨٢١ إلى جون آدمز صديق الثلاث عشرة من سنوات حياتها ، بعد سنين من الجفاء بسبب الخلافات السياسية : « لا أحسب جهودنا ذهبت هباءً ، وسوف أموت دون أن أفقد الأمل بأن نور العلم والحرية سيضىء دائما » .

وهذا هو اليوم والعالم ( ١٩٧٦ ) الذى تحيى فيه أميركا ذكرى المائة الثانية لصدور وثيقة الاستقلال فقد دعى الرئيسان ، الثانى ( آدمز ) ، والثالث ( جفرسون ) لحضور الاحتفال فى واشنطن ، بمرور خمسين عاماً على إعلان وثيقة الاستقلال ، وكان ذلك فى ٤ يولية ١٨٢٦ . ولكن حالتها الصحية ، وتقدمها فى العمر لم تسمح لأبيها بالانتقال إلى واشنطن .



وفي مساء ٣ يولية أحس جفرسون بدنو أجله ، وأخذ يسأل عما إذا كان التاريخ هو ٤ يولية . و شاء القدر الحانى أن يبقى الرجل العظيم حياً إلى ما بعد انتصاف الليل ، ليلاقى ربه في الساعات الأولى من يوم الاحتفال السعيد .

أختم الكتاب بهذا الفصل فى الرابع من يولية ١٩٧٥  
القاهرة

حسين فوزى



## فهرست

### الصفحة

باريس - نيويورك في ست ساعات .....	٣
الصعود حتى جبهة تمثال الحرية .....	٧
محاولة لفهم الولايات المتحدة والأمريكان .....	١٠
رؤية شعب من الداخل .....	١٦
لعبة الشوافين والمشوفين .....	٢٢
صورة مشرقة لحياة صحفي أمريكي .....	٢٨
نموذج من أزمات المجتمع الأمريكي ، ووسائل إصلاحها .....	٣٣
عن التعليم والجامعات الأمريكية .....	٤٠
دعوة مستجابة فيما أرجو [ فصل انتقالي ] .....	٤٦
وادی الملوك على ضفاف متشيجان .....	٥٣
عودة إلى العالم الجديد .....	٥٥
مدينة لها تاريخ في صنف من الموسيقى .....	٦١
جيمى كارتر .....	٦٩
كيسنجر ميترنخ العصر الحديث (١) .....	٧٨
ميترنخ العصر الحديث (٢) .....	٨٦
ذكرى من دنيا الله الواسعة .....	٩٥
في عالم مرشدى السفن .....	١٠٢
توماس جفرسون [ الرئيس الثالث للولايات المتحدة ] .....	١١٠

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٥٤٨٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٠٥٢-٨

١ / ٨٣ / ١٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



## هذا الكتاب

عرف الدكتور حسين فوزى بهذه الإضافات الممتعة لأدب الرحلات، فهو سندباد يطوف العالم، قديمه وجديده، وأساطيره وغرائبه وعجائبه، وهو يقدم لنا هذا كله بأسلوب جذاب مدقق ممتع. وهذا الكتاب إضافة جديدة يخصصها المؤلف للعالم الجديد أمام تمثال الحرية، وخلال المجتمع الأمريكى الذى يجمع المتناقضات جميعاً، ويسود العالم بفنه وفكره.. وسياسته أيضاً. إن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرحلات.. أنه يراها بعينه ويسمعها بأذنه، ويحسها بوجدانه، ومن هنا كانت قيمة كتابات الرحالة السندباد حسين فوزى.